مجلة
روايات أحلام

أجنحة الوهم

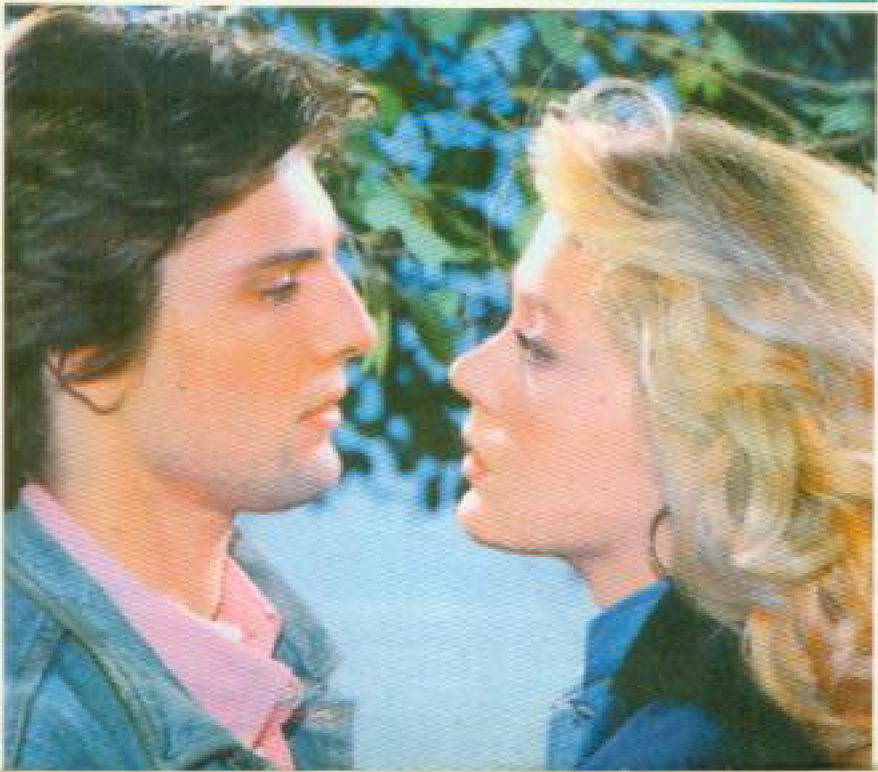

مجلة روايات أحلام

أجنحة الوهم

لا نستطيع أن نحب دائماً الشخص المناسب، فالحب ليس أمراً نتحكم فيه بإرادتنا.

اختبرت شيلي من الحب أعنف وجوهه فقد كان حب فرانكلين هايز إعصاراً اجتاح حياتها ولم يخلف وراءه سوى الأطلال، ولم تستطع أن تتحمل الألم الذي عانته عندما هجرها فرانكلين بدون سبب ولكن الصدمة العنيفة كانت عندما عرفها إلى زوجته..

لم تجد شيلي دواءً لجروحها إلا في الهرب إلى أعماق الريف. فمن يستطيع أن يلهيها عن ذكرياتها؟ هل هو تيرانس بارنز الأرمل أو صاحب السيادة الذي يسيطر ظله المخيف على المزرعة؟

ولكن هل يداوي الحب إلا الحب؟

لبنان [redacted] ل.ل.	الإمارات [redacted] د.	مصر [redacted] ج.	ليبيا
سوريا [redacted] ل.س.	قطر [redacted] ر.	المغرب [redacted] د.	اليمن
الأردن [redacted]	البحرين [redacted] ف.	تونس [redacted] ٥ د.	السودان
الكويت [redacted] ف.	السعو[redacted] ر.	عمان [redacted] ب.	العراق

١ ـ الوجه الآخر للحب

وضعت شيلي سماعة الهاتف من يدها ببطء متعمد.. كان وجهها شاحباً كل الشحوب بانتظار توقف صوت فرانكلين عن التذبذب في أذنيها.

في الغرفة الثانية، ارتفعت اصوات سعيدة بعيد ميلاد.. بعض الاطفال يضحكون، وبعضهم يصيحون، لقد جاء أخوتها الخمسة إلى منزل العائلة في عطلة هذا الاسبوع، مع زوجاتهم وأولادهم، والمنزل يعج بهم فمنذ أشهر عديدة لم يجتمعوا جميعهم. شاهدت وجه أمها المتورد، وابتسامتها المنتشية، وباقة الزهر الأنيقة المثبتة على فستانها الجديد.. وعرفت شيلي أنها لن تستطيع القيام بما قد يدمّر هذه السعادة كلها، عليها العودة إلى الحفل مبتسمة في الوقت الذي لا تشعر هي فيه إلا بالرغبة في إيجاد مكان منعزل لتلعق جراحها.

ليس الوقت الآن وقت التفكير في الأمر، لقد توقعت ما حدث لذا ليس عليها أن تُبدي دهشتها.. رفعت ذقنها تثبت أكثر ابتساماتها اشراقاً ثم سحبت نفساً عميقاً قبل أن تنضم إلى

www.liilas.com

عائلتها.

بعد أكثر من ساعة فقدت القدرة على السيطرة على الألم الذي بدأ يجتاح كيانها منذ مخابرة فرانكلين. ودّت لو تبكي كانت الدموع متوارية خلف مآقيها، ولكن، صورة فرانكلين الوسيم، كانت تتحداها أن تنهار.

تذكرت التكبّر الطفيف الذي كان يتسلل أحياناً إلى وجهه حين يفكر عميقاً. تصورته على هذه الصورة الآن فكان أن قذفت هذه الصورة الرماح إلى كرامتها.. إنه شيطان وسيم لا ريب في أن عجرفته أثرت فيها، أثناء تعارفهما الذي لم يدم إلا وقت قصيراً.

حينما تعثّر روني، أصغر أبناء أخوتها بلعبة هي عبارة عن شاحنة حمراء براقة، ضمته بسرعة بين ذراعيها لأنه أجهش بالبكاء ثم راحت تهدىء روعه وتهدهده حتى توقفت الدموع.

تحلق عدد من الصغار حولها، وطالبوها بالاهتمام ولكن أخاها التوأم فريدي، صاح بهم بعدما خرّ إلى الأرض على يديه وركبتيه:

ـ تعالوا يا أولاد.. سأكون الحصان... اصعدوا على ظهري وسأصطحبكم في نزهة...

ابتسم لشيلي قائلاً:

ـ ليس لديك قوتي لذا لن يستطيع الجميع امتطاءك.

وضعت روني من يدها ضاحكة، وجثت قرب اخيها على يديها وركبتيها:

ـ اركب روني، وأنت كذلك ايما، سنسابق العم فريدي.

ضربا السجادة بأيديهما، وصهلا ودارا بالصغار في الغرفة مدة نصف ساعة وأخيراً انهارا ضاحكين.

صاح الاولاد: «مرة أخرى، مرة أخرى».

لكن شيلي رفعت يديها مستسلمة، تضحك عاجزة، وقال فريدي:

ـ هذا الجواد العجوز لم يعد صغيراً كما كان.. ولقد آن الوقت «لشيلي العجوز» أن تطلب الراحة في المرعى.

أضافت ايلسا، زوجة فريدي:

ـ ولقد آن الوقت لكل رعاة البقر أن يستعدوا للنوم.

سرعان ما استعاد المنزل نظامه بعدما أخلد أحد عشر طفلاً إلى أسرتهم الجماعية، في غرف النوم الكبيرة، في الطابق العلوي.

نظفت الأطباق المتسخة ورُفعت إلى أماكنها ثم تحلق الأخوة حول التلفزيون يناقشون مزايا فرق البايسبول المفضلة لديهم. ورأت شيلي أمها وأباها، يتصفحان ألبوم صور قديمة. في هذا الوقت بالذات تسللت شيلي من باب المنزل الخلفي بهدوء إلى الخارج.

كان الفناء الخلفي هادئاً فيه مرجة خضراء منحدرة وزهور برية عطرة. سمعت صراصير الحصاد تصدح بعذوبة وتناهى إليها من مكان ما نباح كلب. تقدمت إلى شجرة صغيرة، ورفعت ذراعيها إلى غصن مزهر زكي الرائحة.. وفي تلك اللحظة عاد ما نحته بعيداً عن تفكيرها إلى الواجهة من جديد.

أمسكت الغصن الناعم، محاولة تذكر الإحساس الذي

www.liilas.com

كانت تشعر به في طفولتها. كان هذا المكان في طفولتها جنتها التي تلجأ إليها هرباً من إخوتها، ومن مزاحهم الثقيل الذي لا يرحم. كلهم أكبر منها إلا توأمها فريدي. وطالما سخروا منها قائلين بأن عليها حين تقع في الحب أن تنتظر موافقتهم الصعبة المنال حتى يتم الزواج.

أما الآن فلا مجال لمثل هذه الموافقة. إنها لا ترى سوى الوحدة.

ـ أيساعدك التحدث إليَ عن الأمر شيلي؟

كان صوت فريدي العميق لطيفاً حنوناً، فتصلب جسمها ولكنها لم تلبث أن أرخت ذراعيها.

ـ لم أشعر بقدومك.

ـ حاولت طوال السهرة المحافظة على واجهة مرحة، غير أنني لا أصدق أنك سمعت شيئاً مما دار حولك منذ ساعة ونصف.

ـ لا أعرف قصدك..

دار حول شجرة ليقف أمامها:

ـ تعرفين أنني لا أزج أنفي في شؤون أحد أبداً.. شاهدتك تردين على المخابرة، ولم أستطع إلا ملاحظة تعابير وجهك بعد انضمامك إلينا. فإن رغبت في الكلام كنت سعيداً بالإنصات إليك.

شعرت بالامتنان لأن عتمة المساء تخفي تعابير وجهها.. ربما أحس بألمها لأنه شقيقها التوأم.

ـ إنه فرانك.

www.liilas.com

عندما لم يعلق فريدي بشيء أردفت:

ـ اتصل يودعني. مضى على وجوده هنا أسبوع، وهو عائد إلى بيته غداً. قال إنه لم يستطع مغادرة لوس انجلوس بدون أن يتصل.

ـ ألن يأتي ليراك قبل سفره؟

هزت رأسها نافية، واستندت إلى الشجرة علها تحول دون تساقط الدموع المستعدة للوثوب في أية لحظة.

ـ قال إن لا داعي للمجيء.

ـ لماذا؟ خلته يريد الزواج بعد عودته!

ردت ببؤس: «هذا ما اعتقدته أنا أيضاً».

ظهر عدم التصديق على وجهه:

ـ أتقولين إنه أنهى علاقتكما بكل بساطة عبر الهاتف؟ خلته أرفع مقاماً. هل ذكر لك الأسباب التي جعلته لا يراسلك في الآونة الأخيرة؟

ـ لا.. فقد اكتفى بأن قال إنه فكر في الأمر في كرونويل وإنه توصل إلى نتيجة مفادها أن من الخير لنا ألا نتقابل بعد الآن لأننا من عالمين مختلفين.. وما إلى ذلك من كلام.

أدارت ظهرها، تحدّب كتفيها.. فلم تعد مستعدة للمضي في الكلام بدون أن تبكي وفي الواقع هي ترفض أن تنهار ولو أمام فريدي رغم أنه سيتفهمها نعم التفهم.

إنها لا تفهم عمق صدمتها هذه، لا تفهم سبب اختياره هذه الطريقة لإنهاء ما كان بينهما ودارت بها أفكارها فطالما آمنت بلطفه ودماثة أخلاقه. كان شخصاً قاسياً حازماً غير أنه

قال لها إن الزمن سيصقل طبعه الخشن القاطع. أما الآن فلم تَرَ منه سوى قسوة رهيبة إذ اكتفى بالقول: «انتهى الأمر.. لن أراك بعد الآن». وانقطع الاتصال.

همس فريدي بلطف، وهو يحيطها بذراعه دافناً وجهها في صدره:

ـ أنا آسف شيلي.. أعرف ما يعنيه لك.

صمتت طويلاً، ثم مزقتها تنهيدة عميقة:

ـ أتؤمن بالحب من النظرة الأولى.. فريدي؟

قال بتفهم كامل: «لقد وجدت إيلسا حين التقيت بها في المرة الأولى مميزة ولا أدري إن كان ما شعرت به حينها حباً أم انجذاباً تطور إلى حب».

ـ أما أنا فعرفت منذ اللحظة الأولى أنني أحببته وقد بادلني هو شعوري.. لم نقل شيئاً حينذاك ولكننا عرفنا ما يكنّه أحدنا للآخر. وفي أحياناً كثيرة لم نكن بحاجة لقول شيء فقد عشنا حالة من توارد الأفكار. أتفهم قصدي؟

أمسك كتفيها بقوة، ونظر إلى وجهها الخالي من اللون:

ـ ما كان بينكما أمر نادر حقاً. لهذا، لا أفهم كيف استطاع إنهاءه عبر الهاتف، كما لا أفهم كيف تسمحين له أنت بأن يمضي هكذا؟ ظننتك ستحاربين الدنيا من أجله أو ستحاربين الجميع حتى تعرفي ما وراء هذا التغير المفاجىء؟

ـ كيف؟ قال إنه لا يريد رؤيتي ثانية.

ـ اذهبي إليه حالاً! تحدثي إليه وابحثي عن الغلط! قاتلي من أجله! ألا يستحق القتال شيلي؟

دس يديه في جيبيه، واسودّ وجهه:

ـ لا أظنه من الأشخاص الذين يتصرفون بهذه الطريقة وإن كنت مهتمة به حقاً فستعرفين السبب.

ـ وكيف لي أن أقاتل من أجل من لا يريدني؟

ـ إن استسلمت بلا محاولة، بقيت دوماً يعذّبك التساؤل عما هو السبب حقاً.. ربما الأمر لا يعدو سوء تفاهم بسيط.. ألا يستحق هذا المحاولة؟

نظرت إليه لحظة، تزن ما قال..

ـ أتظنه مقيماً في «الأمباسادور؟».

شعت ابتسامته بالرضى.

ـ على الأرجح.. فهناك أقام في المرة الأخيرة. سأتصل لأتحقق. بعد ساعة يكون الأطفال قد غطوا في سبات عميق فإن خرجنا لم يفتقدنا أحداً. سأقول لايلسا ولأمي وأبي إننا خرجنا في نزهة، سألقاك في طريق المنزل الداخلي بعد خمس دقائق.

ربما هو محق.. ربما لا يعدو الامر سوء تفاهم بسيط، وربما هو أكثر من ذلك بكثير. كانت طوال الطريق إلى البلدة تتأرجح بين الأمل والخوف.. حين أنزلها فريدي أخيراً أمام باب الفندق، ابتسمت له متوترة.

ـ سأجد مكاناً أركن فيه السيارة، ثم سأتوجه إلى قاعة الانتظار لأنتظرك فإن لم تنزلي خلال نصف ساعة عرفت أنكما أصلحتما الأمور وسأرحل.. حظاً سعيداً!

ـ شكراً فريد، أشعر بأنني بأمس الحاجة إلى الحظ

السعيد.

طمأنها ضاحكاً: «لا تقولي ذلك، فما أن تريه حتى ينقلب كل شيء رأساً على عقب».

أعطاها موظف الاستقبال الشاحب رقم غرفة فرانكلين، فتوجهت إلى الممر الطويل الفارغ وظلت واقفة فيه فترة قبل أن تستجمع ما يكفي من شجاعة لتقرع. كان قلبها يخفق بسرعة وقوة، حتى ظنت صداه يتردد في الممر الصامت. ولكنها أجبرت نفسها على قرع الباب قبل أن تفقد أعصابها، وتغادر المكان بدون أن تراه.

لم تسمع الرد، فخالته للوهلة الأولى غير موجود في الداخل.. لكنها سرعان ما سمعت صوته المخنوق من وراء الباب.

ـ الباب مفتوح.

استجمعت شجاعتها، ثم خطت إلى الداخل وعيناها تجولان في الغرفة الواسعة قبل أن تستقرا عليه.

لاحظت شيلي جسده ينتفض مجفلاً حين عرفها، ثم استقام في جلسته متوتراً، والغريب أنه لم يقف حين اقتربت منه.. غاصت قدماها في سجادة بيضاء سميكة جعلت خطواتها متوترة، مترددة بحيث اضطرت للتوقف فجأة وبقيت حيث هي، ثم راحت تبحث في وجهه عن دليل على سروره برؤيتها أو على الترحيب بها ولكنها لم تجد إلا تقطيبة شديدة واجهت عينيها المتوسلتين.

لقد تغير!

رأته الآن مرتدياً سروالاً أسود وقميصاً أبيض أظهر بشرته الدكناء عادة شاحبة اللون دليل عدم العافية ولكنه رغم ذلك ما زال يملك القدرة على اطلاق العنان لقلبها. أما شعره الاسود الكث فبدا أطول قليلاً مما تذكره، وهو إلى ذلك أشعث وكأنه كان يخلل أصابعه فيه. كان أنحل عوداً، أما فمه المتجهم المشدود فقد جعلها تنتبه إلى عظام خديه القوية، وإلى عينيه الرماديتين غير العاديتين المفعمتين بدهشة عاصفة، أذهلتها.

دفع رأسه إلى الوراء بشموخ ثم جلدها صوته كالسوط.

ـ ماذا تفعلين هنا شيلي؟

وكأنه لا يصدق أنها هنا، بالفعل. أحست فجأة أن فمها وحنجرتها جفا، ثم انتشر ألم حاد في وجهها الخالي من اللون، وتبعثرت فجأة أعصابها المتماسكة.

ـ رأيت أن عليّ المجيء فكيف استطعت بكل بساطة الاتصال بي لتقول إن كل شيء انتهى؟

ـ لقد أوضحت ما أريد بنفسي.. أنا لا أريد رؤيتك مجدداً.. فلماذا أتيت؟

لم يتحرك.. كانت يداه إلى جنبيه، وكأن لا حياة فيهما.

تقدمت منه متعثرة: «لماذا قرانك؟».

قال بخشونة: «يا الله! ليس بيننا ما يقال».

ارتبكت ارتباكاً شديداً لأنها لم تفهم لتباعده سبباً. هذا ليس الرجل الذي تركته في المطار منذ بضعة أشهر ففرانكلين هايز الذي تعرفه، رقيق لطيف، محب، أما هذا فنحيل، بارد، وشرس.

ـ لا أريدك هنا!

ـ أرجوك! ماذا أصابك حتى تغيرت إلى هذا الحد؟ أكنت مريضاً؟

ـ لم أصب بمكروه بل لم أكن قط أفضل حالاً.. اخرجي من حياتي شيلي.. فقط.. اخرجي من حياتي!

ـ أنا.. آسفة. فإن كان بيننا بعض سوء التفاهم أو كنت قد ارتكبتُ خطأً أو قلت قولاً غير لائق أو...

قاطعها ببرود:

ـ لا تعتذري.. الأمر لا يتعلق بما فعلته أو قلته. أنا بكل بساطة لا أريدك هنا.. ألا يمكنك أن تفهمي؟

ازدردت ريقها: «لا، أنت لا تقصد ما تقول».

دنت منه حتى جثت على ركبتيها أمامه.. تنظر إليه بعينين يعذبهما الألم:

ـ هل نسيت ما يعنيه أحدنا للآخر؟ أحبك.. علينا أن نتحدث عن السبب مهما كان لنصححه.

واجهها فرانكلين بوجه متجهم وبجسد لا يحرك ساكناً في مقعده فهو لم يلمسها، ولم يتحرك ليبتعد عنها.. بل جلس فقط بلا حراك، وكأن لحمه ودمه، تحولا إلى رخام، أما فكاه فكانا مشدودين وأما عيناه فكانتا.. تحرقانها بنار الرفض.. لا يمكن أن يكون تمثال رخامي نحيلاً إلى هذا الحد.

ـ ثمة ما بدلك هذا التبديل كله! ماذا حدث في الأشهر الستة الماضية حتى تغير كل شيء؟ انقطعت عني رسائلك ورُدّت رسائلي وعجزت أنا عن الاتصال بك هاتفياً.. لماذا؟

كان قلبها يخفق بين ضلوعها، فتجاهلت خطر الاذلال والرفض، وعقدت ذراعيها حوله، تدفن وجهها في عنقه.

بشرته دافئة، شعر صدره الكث الحريري يدغدغ أنفها..

تقاربهما المألوف هذا، بعد أشهر من الفراق حطم آخر رباطة جأش كانت تتمسك بها، فتمتمت بدون تفكير.

ـ آه فرانك.. أحبك! ولن أتوقف عن حبك مهما كان السبب.

سمعته يتأوه قبل أن تلتف ذراعاه حولها بشدة، ولكنه لم يلبث بعد ثانية أن أمسك كتفيها بخشونة، وشدها إلى فوق حتى أصبح وجهها على بُعد إنشات من وجهه.

قال بهدوء مخيف: «شيلي.. لقد انتهى الأمر.. لا أريد أن أجرحك.. إن رحلت حالاً فلن تتألمي».

حاولت السيطرة على أنفاسها المتسرعة غير المنتظمة وإنما بلا طائل. صاحت عبر شفتين جافتين:

ـ لماذا؟ هل نسيت أنك طلبت مني الزواج بك قبل أن ترحل؟ ظننتك تحبني!

كادت تقسم أنها ترى بريق ألم شديد في عينيه.

ـ نحن من عالمين مختلفين كل الاختلاف، وما كان زواجنا لينجح. ارضخي للأمر الواقع.

فجأة تسمَّر جسمه وعاد وجهه شاحباً بارداً، قاسياً كالمرمر. ثم تراخت أصابعه عن كتفيها، فتهاوت بشكل أخرق إلى الارض عند قدميه.

قبل أن يتسنى لها الوقت لتلملم شتات نفسها انفتح الباب

ودخلت منه فتاة نحيلة صغيرة الجسم في مثل عمرها تقريباً.. كان شعرها كومة من الخصل المجعدة الحمراء الذهبية التي تشكل إطار هذا الوجه الجميل المميز.

ذهلت المرأة عندما وجدت شيلي جاثية أرضاً عند قدمي فرانكلين، فأدارت عينين متسائلتين إلى شيلي التي اتسعت عيناها حين استقرتا على وجه الرجل المصدوم.

لم يصدر عن أي منهما صوت.. وفي لحظات هستيرية فكرت كم تبدو غبية أمام الفتاة، وكم تبدو ممتقعة اللون، مشعثة المظهر وكأنها كانت تركض لاهثة.. هبت من مكانها ثم راحت تمسد جانبي سروالها الاخضر القاتم بيدين مرتجفتين.. ألن يقول أحد شيئاً؟ نظرت إلى فرانكلين نظرة إتهام، واجتاحها غضب لا سبب له.. لماذا لا يقول شيئاً؟ لماذا لا يفعل شيئاً؟ لماذا لا يحرك ساكناً.

أخيراً قال بصوت عميق واضح:

- أنا مسرور بعودتك ستيلا.. الآن يمكنك لقاء شيلي، الفتاة التي أخبرتك عنها.

لم يتحرك حين وضعت الفتاة المسماة ستيلا اللفائف على كرسي وقطعت الغرفة بخطوات رشيقة بل أكمل التعارف:

- ستيلا! هذه شيلي نوريس.. شيلي، هذه ستيلا.. زوجتي.

جفّ اللون من وجه شيلي التي حبست أنفاسها بسرعة.. تنظر إليه نظرة من لا يصدق ما سمعه. ومض على حين غرة شعره الاسود كأنه نار تحت نور المصباح، وأصبح قميصه

ضباباً أبيض فوق كتفيه العريضتين.

زوجتي.. هكذا بكل بساطة.. زوجتي!

مادت الغرفة بها وأحست بالكلمات تختنق في حلقها وشعرت بأنها تلقت لكمة قاضية في معدتها، أما أنفاسها فانقطعت وترنحت متألمة ألماً تمنت معه الموت.

تجمعت الدموع في مآقيها ولكن ارادتها القوية هي التي حالت دون انهمارها. في داخلها كان صوت يصيح: هذا غير صحيح! قل لي إنه غير صحيح! ليس صحيحاً!

تصاعدت الغصة إلى حلقها ولكنها رغم ذلك تمكنت من غرز أسنانها في شفتيها لتمنعها من الصعود.. أحست بالرعب أمام شعورها المفاجىء بالبؤس. لقد كانت واثقة منه، مستعدة للوقوع في حبه وها هو قد استغل سذاجتها. وسلّى نفسه على حسابها ضاحكاً منها واعداً إياها بالزواج. لا شك أنه قضى أوقاتاً مرحة.

نظرت إليه عبر غشاء لاذع من الدموع، لكن قسماته الصارمة ظلت تتراقص أمام عينيها..

من مكان عميق، من بئر الشجاعة في أعماقها، وجدت رباطة الجأش. عليها بطريقة ما، مغادرة هذه الغرفة قبل أن تنهار كلياً، لأنها إن انهارت عانت من أشد أنواع الاذلال لها، لا، لن تريه أبداً مدى الألم الذي أوقعه بها... تمسكت بيأس بما تبقى من كبريائها فرفعت رأسها بأنفة وشموخ ثم أجبرت ساقيها المخدرتين على السير حتى الباب.. كانت تعرف أن عليها الخروج بأسرع وقت ممكن قبل أن يرى ضعفها.

أقفلت الباب بصمت خلفها ثم توجهت إلى بهو الاستقبال، وهي لا تشعر بأنها تتحرك.

قفز فريدي عن الكرسي ثم شق طريقه بين الجموع.

ـ هاي.. شيلي! إلى أين؟

لحق بها، وأمسك مرفقها، ليديرها إليه:

ـ يا إلهي! تبدين كالموتى. ماذا حدث؟

همست بقلب محطم: «خذني إلى البيت فريدي. أرجوك».

مرَّ الأسبوع مظلماً مؤلماً.. وعرفت عائلتها بالطبع.. وتعاطفت معها بصمت. شعرت برعايتهم وحنانهم فكانت شاكرة لهم. وفي وقت لاحق تساءلت عما قاله لهم فريدي لأنها شعرت بالراحة لعدم اضطرارها إلى شرح ما حدث بنفسها. فماذا كان عليها أن تقول.. حقاً؟ لقد غلفها إحساس بالخزي والعار واستولت عليها رغبة عارمة في نسيان غبائها الشديد.

ولكنها طوال فصل الصيف، لم تستطع سوى تذكر فرانكلين هايز وما فعلاه معاً وما كانا يشعران به من أحاسيس وحب كبير ثم تصورته عندما رأته في المرة الأخيرة فإذا هو جامد، بارد، لا حياة فيه.. كيف فعل بها ذلك؟ سألت نفسها هذا السؤال يوماً بعد يوم.. ما الذي جناه من فعلته تلك؟ ولماذا؟ لقد رحل وضاع، إلى الأبد.

في هذه الأثناء التي حاولت فيها لملمة خيوط حياتها المهترئة ذهبت إلى عيادة لتأهيل المرضى حيث عملت مساعدة

وتطوعت عن قصد ساعات إضافية علّها تعود إلى المنزل مرهقة حتى الموت، وأدرك أهلها ما تحاول أن تفعل ولكنهم تجنبوا بحذر التعليق على ما تفعل ومع انهم لاحظوا الدوائر القرمزية القاتمة حول عينيها، وتجاويف خديها العميقة، إلا أنهم حاولوا التجاهل، غير أنه مع الوقت صعب عليهم مراقبتها وهي تختزن كل شيء في نفسها، وهم غير قادرين على تقديم المساعدة.

في ليلة خريفية منعشة دخلت شيلي إلى المنزل من الباب الخلفي، فوجدت أباها يجلس إلى طاولة المطبخ مرتدياً البيجاما والروب وعلى وجهه تقطيبة سوداء. ابتسمت ابتسامة حذرة حاولت فيها أن تكون مرحة فازداد أبوها توتراً.

ـ مرحبا أبي.. لماذا أراك مستيقظاً حتى هذه الساعة المتأخرة؟

رفع رأسه الأشيب ينظر إلى ساعة الحائط متجاهلاً تحيتها:

ـ أتعلمين أن الساعة تكاد تبلغ منتصف الليل؟ تقول أمك إنك لم تتناولي عشاءك مرة أخرى، ولا أصدق أنك كنت في العيادة طوال هذا الوقت.

ـ لم أكن في العيادة.. كنت أتمشى.. وأفكر.

ـ حتى هذه الساعة من الليل؟ الطقس بارد في الخارج، والمطر بدأ ينهمر.

احدودبت كتفاها ثم دنت من البراد قائلة: «أترغب في فنجان كاكاو؟».

دفع بكوب أمامه على الطاولة:

ـ تناولت كوباً أثناء انتظاري لك. ولا أعتقد أن كوباً آخر سيضرني.

تفرست عيناه المضطربتان في ظهرها، وأصابته موجة غضب يائس لأنه لاحظ مدى نحول كتفيها:

ـ يجب أن يتوقف هذا.. شيلي.

رفعت رأسها مقطبة: «أليس الوقت متأخراً يا أبي؟ لقد امتنعت عن انتظار عودتي منذ زمن؟».

ـ لا أتكلم عن هذا الأمر.. لقد خرج فرانكلين هايز من حياتك منذ شهور فلماذا ما زلت متأثرة إلى هذه الدرجة؟

ـ أرجوك.. أفضل ألا أتحدث عن الأمر.

ـ يجب أن تواجهي الحقيقة.. إن نظرت إلى الأمر بتعقل وجدت الثغرات في علاقتك به. كم من الوقت تعرفت إليه قبل أن يسافر للمشاركة في جنازة أبيه في كرونويل؟ ثلاثة أسابيع؟ شهر؟ هذا وقت غير كاف للوقوع في حبه.

ـ الوقت نسبي.. قد تعرف عن شخص أموراً كثيرة في غضون شهر، وقد لا تعرف عن آخر شيئاً في سنوات.

التوى فمه وهو يقبل الكوب من يديها المرتجفتين، لكنه جمّد نفسه ليتجاهل نظرة الألم على وجهها:

ـ لكنك لم تعرفي شيئاً عنه. لم تعرفي ابداً الأشياء التي لها أهمية شيلي.. هل ذكر لك يوماً زوجته المنتظرة في انكلترا؟ وماذا عن الأولاد؟ ألديه ابنة؟ ابنة قد تكبر لتذكره بك؟ أم ابناً؟

تهاوت دفاعاتها: «لا تفعل بي هذا أبي.. أرجوك لا تفعل!».

وما هي إلا هنيهة حتى أجهشت بالبكاء وسرعان ما شقت دموعها طريقاً على وجهها.

قال لها أبوها بعطف: «أنا مضطر إلى ذلك من أجل مصلحتك».

وقف يضمها بين ذراعيه فدفنت وجهها في صدره، ثم راح يهدهدها بلطف.

ـ آه.. شيلي.. إنه ليس الرجل المناسب لك.. ستجدين يوماً ما إنسان سواه. لم يكن يهتم بك حقاً، وإلا لما استطاع إيلامك بهذه الطريقة، عليك نسيانه يا ابنتي.

شهقت بمرارة:

ـ أحبه.. وأعرف أن من الخطأ أن أحب رجلاً متزوجاً.. لقد حاولت ألا أكون غبية إلى هذا الحد فلم أستطع.

ربت على ظهرها متنهداً:

ـ لا بأس عليك حبيبتي.. أنت لست غبية. فالمرء لا يحب دائماً الشخص المناسب، وهذا ليس أمراً نستطيع التحكم به بارادتنا.. ولو كان بسيطاً إلى هذه الدرجة، لما كان هناك نكهة في حياتنا.. ولكنني أرى بأن أمامك خياراً.

سحبت نفساً مرتجفاً غير واثق: «ماذا تقصد؟».

ـ الأمر بسيط فعلاً.. لا تجعلي هذه التجربة تفسد حياتك وتُريك الرجال كلهم سواء بل تعلمي منها وحاولي نسيان فرانكلين هايز. ولكن لا تحاولي سحق كل الذكريات التي

كانت بينكما فكلما حاولت النسيان عادت الذكريات قوية إليك. لذا لا تقاومي مد الذكريات لأنك إن قاومتها انتهى أمرك ودمرت نفسك، لست مضطرة لكبت مشاعرك.. ولكن سيطري عليها وتقبلي أنك أحببت الرجل غير المناسب، ثم استمري في الحياة وعندها تحل المشاكل بنفسها.

سألت، والذعر يهدد صوتها: «أهذا ما تقصده حقاً؟».

- صدقيني شيلي.. الحب عاطفة نظيفة. ومن يقول إنها غير قوية أو شرسة، لا يعرف الحب حقاً. وللحب أوجه عدة وما شاهدت منه هو أحد وجوهه فقط ويؤسفني ألا تري منه إلا أبشع وجه من وجوهه. ستجدين يوماً ما الرجل الذي سيعرض عليك نوعاً آخر من الحب.. أما هذا الوجه فليس عليك سوى نسيانه.

عرفت أنه على حق. فقد كانت حتى الآن تخدع نفسها محتفظة ببارقة أمل في أعماق قلبها موهمة إياها أن شيئاً ما سيتغير، وأنها قريباً ستجد نفسها مع فرانك مرة أخرى، وكأنهما لم يفترقا قط.

أرجعت الدموع السخينة التي كانت تحرق عينيها وأحست بخجل عميق من حماقتها وعدم رغبتها في مواجهة الأمر الواقع. تلاشى تدريجياً تشنج جسمها واسترخت على صدر أبيها الضخم الذي ضمها إليه بقوة، لتشعر بالأمان بين ذراعيه الدافئتين.

مرت دقائق بطيئة وقفا فيها في المطبخ الدافىء الضئيلة أنواره. وعندما رفعت رأسها بدا في وجهها تصميم وعزم..

فابتسم والدها بلطف:

- هذه هي شيلي التي أعرفها.. لقد خطوت الخطوة الأولى.. والباقي آت طوعاً، لو ابتعدت عن هنا فترة.

ابتلعت ريقها: «أبتعد».

- سأقوم وأمك بتلك الرحلة البحرية التي سعيت وأخوتك لنا بها. ليس عليك البقاء بمفردك هنا.. ليس لأنني أراك عاجزة بل لأن ابنة الثانية والعشرين ربيعاً بحاجة إلى تغيير الجو والمناظر في مكان بعيد ليس فيه ذكرى فرانكلين. لقد اتصلت عمتك هذا الصباح من بنسلفانيا، فشعرت أن اتصالها هبة من السماء. إنها تطلب منك المساعدة.

- لكن كيف أساعدها؟ فهي تدير مزرعتها بدقة شديدة فان قدمت لها يد المساعدة فقد أعيق العمل. أتذكر ما حدث عندما كنت عندها وأنا في السادسة من عمري، أتذكر حادثة التراكتور الذي علقت به قدمي؟.

- وكيف أنسى؟ ولكن لا تقلقي.. تحتاجك في أمور أخرى.. أتذكرين تيرانس بارنز؟ تقول إن لديهما محصول وافر استثنائي هذه السنة من فول الصويا، وإن تيرانس مشغول جداً.. تحتاج إليك للمساعدة في العناية بابنه.

ضاقت عينا شيلي بريبة وسخرية:

- أبي لم تتصل أنت بها لتطلب منها إيجاد عمل لي هناك؟

- يا له من عقل كثير الشك. لماذا أفعل شيئاً كهذا؟

- الأمر غريب قليلاً أبي.. تيرانس بارنز، طويل أسمر

ووسيم وأصغر من أن يكون أرمل. ولماذا تحتاج إليَّ العمة للمساعدة برعاية ابن تيرانس؟

ـ لقد وجدت جينفر عملاً كمدبرة منزل، ولن تتمكن من قضاء وقت طويل مع الصبي.. ولأنه في الرابعة من عمره، فهو يحتاج إلى اشراف دائم.. إضافة إلى هذا، ما أعرفه أن تيرانس أشقر لا أسمر كما أنني لا أظنه وسيماً.

ـ لكنك تعتقد أنه بهي الطلعة بما يكفي ليلهيني عن فرانك؟

وضع كلتا يديه على كتفيها، وابتسم:

ـ أتعتقدين انه قادر على هذا؟

ـ لا أريد ذلك.

ـ ما دام هذا شعورك فلن يصل إليك أبداً. لا تنظري إليه على أنه بديل عن فرانكلين هايز، إذ ستكون هذه التجربة وجهاً آخر من أوجه حياتك.. فإن تطور بينك وبينه شيء ما، فلا أظنه سيكون أمراً سيئاً.

ومضت عيناها ببريق أخضر مشعّ، وابتسمت.

ـ لم أعهدك سمسار زواج.

ـ أنت تجرحينني بقولك يا عزيزتي.. فلو كنت أسعى إلى تزويجك لوجدت نفسك متورطة مع تيرانس بدون أن تعرفي أن لي يداً بالأمر.

ضغط بشدة على كتفيها:

ـ لا تفكري في هذا على أنه نوع من الهروب للبدء بحياة جديدة. فذلك المنزل كان بيتك مدة ست سنوات، وأعتقد

أنك ستجدين فيه الشفاء. لن يعرف أحد بما جرى معك، إلا إذا أخبرتهم. لديك ميل إلى الاستقلال ولكنه تلقى صفعة مؤخراً، ونظراً لمعرفتي بك أرى أنك ستستردينه مجدداً.. حافظي على هذه الأنفة وهذا الشموخ، وثقي بأنني أعرف ما هو الأفضل لابنتي.

سحبت نفساً عميقاً، ووضعت يديها بشدة فوق يديه.

ـ ليتك تكون على حق أبي.. ليتك تكون!

لن يحل الهرب شيئاً، ولكن ما يعرضه عليها والدها أمر مختلف. لقد واجهت الذل وعليها الآن النسيان. ستعود إلى المكان الذي ولدت فيه. ستعود إلى البداية مجدداً وفي هذه المرة ستكمل الطريق رامية الماضي وراء ظهرها. صحيح إنها لن تنسى فرانكلين هايز. ولكنها ستنفيه من عقلها وسيبقى هناك في منفاه.

* * *

٢ ـ طيفه يلاحقها

عندما حطت الطائرة في بنسلفانيا كان المطر خفيفاً فاعتبرت هذا فألاً حسناً.

لم تجد متاعب تذكر في إيجاد القطار المناسب لنقلها إلى مزرعة عمتها في لانكاستر في الجزء الجنوبي الشرقي من الولاية.. بعد أن استقرت في مقعدها، تذكرت أن السماء أمطرت حين التقت أول مرة بفرانكلين.

إنه الشخص الوحيد الذي يحب التنزه في كافة الفصول. كان الشاطىء حيث التقيا فسحة رملية ممتدة فارغة غسلها المطر. ولكنه كان أجمل موقع في العالم لها.. ولقد ارتادا معاً ذلك المكان أثناء إقامته في كاليفورنيا.. وهناك.. تحت وابل من المطر الغزير.. طلب منها الزواج.

رفرفت عينيها بشدة، وأجبرت نفسها على التركيز على المزارع المحدقة بها.. لن تفكر فيه فلا مكان له هنا.

كانت السهول الضخمة المتموجة بالألوان الخضراء والذهبية، والبنية، مليئة بالماشية. وكان فلاح شاب يقف قرب السياج، وكأنه يصلي صلاة صامتة مع الطبيعة. بدت

بيوت المزارع منتشرة هنا وهناك بعضها مصمم هندسياً على شكل نجمة أو زنبقة أو زهرة خزامى.

لأول مرة منذ أشهر، وجدت شيلي نفسها تنظر إلى خارج جوها الصغير، واستطاعت الابتعاد عن حبها وآلامه لتتساءل عمن يعيش في هذه المنازل البسيطة.

استقرت في المقعد مستريحة. كان والدها على حق.. في هذا الجزء من البلاد ثمة شيء لا يحده الزمن وفيه قدرة كبيرة على الشفاء غير موجودة في مكان آخر.

حين خرجت من القطار، فتشت بين الجموع الغفيرة علّها تجد وجهاً مألوفاً. كان هناك عدة عربات يجر كلاً منها جواد واحد، وفي كل منها حوذي من الايمش وقرب العربات دراجات نارية وسيارات رياضية.. ابتسمت لهذا التناقض..

خرجت من بين الجمع امرأة قصيرة ممتلئة الجسم، ذات شعر رمادي مجعدة قالت:

ـ رباه! عزيزتي! هل تغيرت إلى درجة ألا تتعرفي إليّ؟

انتفضت شيلي: «عمتي جين».

هزت العجوز رأسها مبتسمة بحرارة:

ـ عرفتك من الصور التي كانت ترسلها أمك.. ولكنك أطول قامة مما توقعت.

ضحكت ثم أردفت:

ـ مرت خمس عشرة سنة منذ كنت هنا.

ضحكت شيلي أيضاً:

ـ وأنت أصبحت أقصر قامة. أذكر أنني كنت أرفع قامتي

لأتمكن من معانقتك.

انحنت وعانقتها:

ـ ما أروع العودة إلى هذه الديار. أشكرك على الدعوة يا عمتي.

قالت العجوز بانفعال مربك: «إنه منزلك يا ابنتي».

تركت ابنة أخيها تعقد ذراعها بذراعها وهما تتجهان إلى السيارة. راقبت شيلي وهي ترمي حقيبة ملابس صغيرة في مؤخرة الشاحنة الصغيرة، ثم التفتت متسائلة:

ـ ظننتك ستمكثين هنا فترة طويلة؟

ضحكت شيلي:

ـ لا تخدعنك الحقيبة، فلم أكن قط ممن تستهويهن الثياب. خاصة مع ساقي هذه.. أعيش معظم الأوقات وأنا مرتدية الجينز ولكنني حملت معي فستاناً فلا تخشي أن أحرجك.

ابتسمت العمة: «وكأنما تستطيعين إحراجي..! نحن نعيش عيشة بسيطة».

قادت جينفر هايندلي الشاحنة بحذر وفي الطريق أخبرت شيلي العمة بكل جديد يتعلق بالعائلة..

مرتا بأراضي ريفية ندية، زمردية اللون تستسلم ببطء إلى ألوان الخريف الحية البراقة.. كانت أشجار حمراء تموج نابضة بالحياة فوق الحقول البنية الذهبية الغنية بالقمح..

ابتسمت جينفر، تمد يدها لتربت كتف شيلي:

ـ متعبة عزيزتي؟ لقد قضيت فترة طويلة كنت فيها رحالة

حول العالم، أليس كذلك؟ تخدمين في مستشفيات مختلفة. أشعر دوماً بعقدة الذنب لأن تراكتورنا هو الذي سبب لك الجروح.. ولكن ساقك ولله الحمد أصبحت أفضل حالاً، أليس كذلك؟

طمأنتها شيلي:

ـ أنها بخير.. لكنني أحس بالتجدد ثانية، مع أنني أنوي الابتعاد عن التراكتورات، هل أنت قلقة من ألا أتمكن من مساعدتك في رعاية تيرانس الصغير؟

ـ أبداً عزيزتي.. إنه حسن التصرف.. ولن تجدي المتاعب معه.. لكنني أتمنى لو أستطيع قول الشيء نفسه عن «صاحب السيادة».

ارتفع حاجبا شيلي متسائلة.

ـ ألم يخبرك والدك عنه؟ أنا واثقة أنني كتبت له عنه.. لقد قلب حياتي رأساً على عقب..

ـ أهو الرجل الذي تديرين له منزله؟

ـ لقد اشترى المنزل القابع في أسفل الوادي السنة الماضية ثم حين أنهى اصلاحه، طلب مني أن أديره له.

ـ أتشيرين إلى ذلك المنزل الكبير القديم المتداعي؟ الذي كان على أبي أن يبعدني عنه دوماً؟

ـ تذكرينه إذن.. أليس كذلك؟

تنهدت شيلي بطريقة مسرحية:

ـ كم تمنيت العيش فيه على أن أكون سيدته العظيمة.. كنت أتطلع إليه دوماً من نافذتي، وأمضي الساعات في أحلام

اليقظة متصورة ما قد أفعله به لو كان لي. . . يا لها من أحلام خيالية بالنسبة لفتاة في السادسة من عمرها.

واحمرّ وجهها للذكرى.

ـ إطلاقاً عزيزتي. . لن تعرفي أبداً إلى أين قد تقودك الاحلام. لكن، عليك رؤية المنزل في الوقت الراهن.

عدلت سرعة السيارة، لتنعطف بها إلى طريق ترابية مستخدمة. . وأكملت:

ـ أعاد صاحب السيادة بناء الجدران المتداعية، وانتزع الاعشاب الضارة والأشجار الميتة فأصبح تحفة للانظار ولم يكتف بذلك فحسب بل وضع الأسماك في الساقية، والجياد في الاسطبل.

ـ إنه بدون شك شخصية مهمة. . فهو يملك لقباً ويعيش في منزل مميز. ترى كيف ينسجم مع سائر الجيران؟

ـ لا أدري إن كان «الورد» حقاً أو صاحب لقب. فما أعرفه أنه اسم أطلقه عليه أحدهم لأنه من مكان في انكلترا. . ولقد ضحك كثيراً حين سمع الاسم للمرة الأولى. . ولكنك لن تري رجلاً أكثر منه تواضعاً. . فالجميع حتى «الايمش» الذين لا يؤمنون بالعيش في ثراء وفخامة، يكنون له الاعجاب والاحترام.

تنهدت، متجنبة ببراعة حفرة في الطريق:

ـ لديه عبء فظيع. يا للرجل المسكين! كان رجلاً منفتحاً ودوداً مع الجميع ولكن، منذ إصابته البالغة، أصبح غريب الأطوار.

سألت شيلي، مذهولة: «كيف؟».

ـ حسناً. . لقد أصبح منعزلاً عن العالم. . إنه مقعد يعيش الآن في كرسي بعجلات وهو لا يستطيع تحمل شفقة الناس لذا يرفض رؤية أصدقائه، ويستشيط غضباً إن اقترب أحد من منزله.

ـ ولكنه سمح لك بإدارة منزله؟

ـ لقد تكدر تكدراً كبيراً حين قلت له إن لدي واجبات أخرى. صحيح أن تيرانس يعمل عندي ولكنه بمنزلة ابني. . عرضت عليه إيجاد مدبرة منزل أخرى ولكنه رفض بإصرار.

التمعت عينا شيلي بحب الازعاج:

ـ ماذا عن زوجته؟ لا شك أنها تغار من حبه لك؟

ردت بجدية تامة: «آه، لا عزيزتي. . إنه غير متزوج».

تحولت شيلي إلى المزاح.

ـ أوهوو. . لا شك في أنه يفكر في جعلك صاحبة السيادة وربما لهذا رفض الجميع.

ـ عمّ تتكلمين بحق الله. .؟ يا الله!. . الرجل في الثلاثين وأنا تجاوزت الستين؟

سرعان ما ندمت: «عندما قلت صاحب السيادة، تصورت سيداً قصيراً بديناً، أبيض الشعر، يجر كلباً ضخماً».

انعطفت جينفر بالسيارة إلى طريق، كان أشبه بممر للمشاة. . وقالت:

ـ لديه كلب ذهبي اللون. . . وفي الواقع أن الرجل المسكين بحاجة إلى ما يعتمد عليه. . قبل الحادثة أشيع أنه

مقبل على الزواج ولكنني أعتقد أن الفتاة رفضت الزواج بعدما وقع الحادث. أمر محزن فعلاً.. لقد عاد إلى المنزل نكد المزاج.. وصرف معظم عماله بحيث لم يعد لديه سوى آدم والبستاني وهال، عامل الاسطبل، وأنا..

- كان أبي على حق حين قال إنك تتعبين نفسك كثيراً.

- آه.. صحيح عزيزتي.. وأنا أشكرك لمجيئك.. فعندما ستقومين برعاية نيل فسأجد الوقت للبقاء مع سيادته وفي الوقت نفسه لن أشعر بأنني أتخلى عن تيرانس.. إنه عزيز على قلبي.

اجتازت السيارة بوابة أنيقة معتنى بها خير عناية فنظرت شيلي بشوق إلى المباني الجميلة وإلى الاسطبل الكبير وإلى الحظائر الفسيحة بشريط شائك. وقد أعادت هذه المناظر الذكريات الماضية حين كانت تقضي أيامها راكضة وراء إخوتها.

عندما أوقفت جينفر السيارة أمام منزل ريفي حجري متين، مخبأ تحت شبكة متراصة من الورود المزهرة على شكل دالية، التفتت إلى شيلي:

- حسناً؟ هل تغير كثيراً؟

لا مكان لفرانكلين هايز هنا.. أضاءت ابتسامة مشرقة وجهها، ولم تستطع منع ضحكتها:

- لقد عدت إلى بيتي.

ضحكت العمة: «أملت أن يكون هذا شعورك. تعالي، لقد سمعت كل شيء عن تيرانس، وحان وقت الالتقاء به».

لحقت شيلي عمتها إلى الداخل فاستقبلتها هالة من الدفء الحميم. كان الباب الأمامي منفتحاً على غرفة جلوس فيها موقد حجرية تقبع في فجوة بارزة في الجدار. تراقص لهيب النار وانعكس نوره على الأرض المصقولة المكسوة بالبسط المختلفة الالوان.

قرب الموقد أريكة طويلة ذات ذراعين وأمامها مساند للأقدام، ليتسنى للجالس الاستمتاع بالدفء وفي الغرفة أيضاً طاولة مدبية الاطراف، مشغولة يدوياً عليها مصباح نحاسي.

اختلطت رائحة شمع التلميع مع الدفء القادم من النار، وابتسمت شيلي مبتهجة.

- حتى بعد تلك الرسائل التي أرسلتها إلينا لم أتوقع رؤية الغرفة بهذا الجمال. لا أذكرها هكذا أبداً.

- هذا لأن تيرانس أعاد ترتيبها. لقد ألغى بضع جدران ليجعلها أكبر حجماً ثم فتح فجوة للموقد حتى تنعم غرفة الجلوس والمطبخ، بالدفء في آن واحد.

- إنها رائعة!

- أما الأثاث الخشبي فأعده بنفسه وقد أعطاني إياه بعد وفاة زوجته. كان عليك رؤيته يومذاك. كان ضائعاً حين عرضت عليه السكن هنا، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه، وعاد إلى الانطلاق.. والآن، لا أعرف كيف أتصرف بدونه.

تناهت إليهما ضحكة مفاجئة التفتت على أثرها المرأتان.

- نيل؟

سارعت جينفر إلى الدرج: «لا شك أن تيرانس يحضره

للنوم. لم أظنني سأتأخر حتى هذا الوقت في العودة من المحطة. ما زال أمامه حلب الأبقار، وما كان عليه أن يزعج نفسه بتغسيل الصغير.. اتركي حقيبتك، وتعالي معي لتقابلي العائلة.. سيحملها إليك تيرانس في وقت لاحق».

تبين أن العائلة عبارة عن طفل صغير، وكلب ضخم ورجل طويل. كان الجميع يشترك بمعركة بالوسادة على السرير العريض الذي لم ترَ فيه شيلي سوى أذرع وسيقان، ووسائد وأغطية مختلطة.

كان الكلب أول من لاحظ وجود شيلي فسارع إليها نابحاً نباحاً قوياً أرعبها وجعلها تتراجع حتى أحست بجدار الغرفة البارد على ظهرها.

صاحت جينفر توبخ الكلب:

- اهدأ، يا بوبي!

ثم التفت إلى شيلي تمسك بطوق الكلب: «هو ليس شرساً».

ابتسمت شيلي بقلق: «إن كنت تقولين ذلك...»

ترددت ثم مدت يدها بحذر شديد لتلامس فروه الأبيض خلف أذنيه.. توقف النباح فوراً، وأخذ ذيله يلوح بقوة..

قالت جينفر: «أرأيت؟».

نظرت إلى الولد الصغير مبتسمة.

- نيل.. أحب أن تلتقي بابنة أخي.. شيلي نوريس.

لم يرد الولد حتى نهض والده من السرير، ووقف إلى جانبه، قائلاً بلطف:

- أين هي أخلاقك الحسنة يا بني؟

ارتفعت يد الصغير بخجل إليها: «كيف حالك؟».

كانت عيناه زرقاوين وقلقتين.

ابتسمت له: «أنا مسرورة بلقائك نيل».

وصافحت يده بحذر بسبب مظهر الصغير المتوتر. ثم، رفعت وجهها إلى تيرانس بارنز.. كان رجلاً طويلاً، عريض المنكبين يرتدي قميصاً رثاً كجينزه علت شفتيه ابتسامة لا مبالية:

- إذن، لقد جئت آنسة نوريس.. هذا ما ظننته.

كان صوته هادئاً هدوءاً أدهشها. لقد توقعت أن يكون صوته عميقاً أجش نظراً لضخامته. ولكن المثير للدهشة التركيز الايقاعي الذي يضفيه على كلماته.

قالت وقد اجتاحها إحساس مدمر بالخسارة: «أنت انكليزي؟».

فرانكلين انكليزي أيضاً.. ويتكلم بالطريقة الجميلة نفسها. نظرت جينفر إلى وجه شيلي الشاحب ثم ابتسمت:

- لقد تعودت على سماع لكنته.. ولم أفكر قط في ذكر جنسيته.

تناول تيرانس يدها بقبضة ثابتة، ولكنها شعرت بوميض ما في عينيه.

- أنا من وايلز في الواقع. لكنني نشأت في كرونويل.

سرت في نفسها قشعريرة ألم.. فرانكلين يعيش الآن في كرونويل.

قالت العمة: «لقد عمل تيرانس في العزبة فترة، قبل أن يطرد صاحب السيادة الجميع. وما لم يدركه المسكين أن خسارته كانت ربحاً لي. فلا أدري ما كنت سأفعله بدونه».

ربتت كتف تيرانس بمحبة، ثم صرفت نيل إلى فراشه بهدوء ثابت.

قبّل تيرانس ابنه الصغير، قبل أن يغادر الغرفة متجهاً إلى الحظيرة لحلب الابقار. استلقى الكلب على السجادة قرب السرير ناظراً إليهما. قالت جينفر بعذوبة قبل أن تطفىء النور.

- تصبح على خير عزيزي، سأترك الباب مفتوحاً لتناديني إن احتجت إلى شيء».

لوحت شيلي بيدها: «تصبح على خير نيل. أراك في الصباح».

لحقت بعمتها إلى الردهة وضحكة عذبة تتناهى إلى مسمعيها. فابتسمت جينفر:

- إنه طفل خجول. يشبهك كثيراً عندما كنت في مثل سنه. أعتقد أنك تغلبت أخيراً على خجلك.

لم ترَ العمة موجة الاحمرار التي تصاعدت إلى عنق شيلي. ذلك الخجل المؤلم ما زال موجوداً.

حينما دفعت جينفر الباب في آخر الممر، خطت شيلي بحذر ثم مدت يدها لتلامس الجدار المنحدر بشدة، قبل أن تتقدم إلى المقعد المنخفض المخصص للنافذة. لم يعد عريضاً كما تذكره، لكنها يومذاك كانت صغيرة، وكانت

تقضي الساعات جالسة هنا تحت إفريز النافذة، تحدق إلى العزبة المهجورة في أسفل التل.

جالت عيناها بالغرفة، المكسوة بأوراق الجدران الملونة ثم تأملت السرير المنفرد، المدثر بلحاف سميك أبيض والخزائن الأثرية.

تراقصت ابتسامة في عينيها:

- شكراً لك عمتي جين. لم تغيري شيئاً هنا. كانت هذه الغرفة دوماً أجمل ما في المنزل.

- أظنني في أعماقي كنت أعرف أنك ستعودين إلى بيتك لتقيمي فيه يوماً ما. لهذا الجزء من البلاد تأثير خاص في الناس. يمكنك القول إننا كنا بانتظارك.

ضمتها إليها بشدة:

- والآن، استريحي. لدينا نصف ساعة قبل العشاء. أقترح عليك أن تخلعي هذه الملابس الرطبة، وترتدي ثياباً دافئة قديمة. الجينز لا بأس به. أنا لا أرتدي ثياباً مميزة للعشاء. انزلي عندما تصبحين جاهزة.

حملت لها حقيبتها إلى الداخل:

- هاك. لا شك أن تيرانس قد حملها إلى هنا قبل ذهابه إلى الحظيرة.

ما هي إلا لحظات حتى اختفت العمة.

فكرت وهي تخلع البذلة الحمراء القاتمة بينرايت دايسون لقد قال لها إنها لن تستطيع العودة إلى موطنها ثانية ولكنها عادت ويبدو أن كل شيء بما في ذلك منزل العزبة ما زال كما

كان في طفولتها.

كان العشاء ذلك المساء مناسبة خاصة تناولوه في غرفة الطعام حيث النار الدافئة تضيف بعداً مميزاً للوجبة اللذيذة.. اختارت العمة جينفر إتباع التقليد البنسلفاني الهولندي فقدمت أطباق «سبع حلويات وسبع حوامض» لمرافقة الوجبة الرئيسية، ونتيجة ذلك، كانت المائدة تنوء تحت ثقل الحلويات والجلو وعنب الثعلب البرّي وزبدة التفاح والاجاص الزنجبيلي والطماطم الحامضة الخضراء المتبلة واللفت المخلل وفطيرة اللحم الحارة الفاتحة للشهية.

تذوقت شيلي القليل من كل شيء لئلا تجرح مشاعر عمتها، وما أن أخليت الأطباق، حتى شعرت بالتخمة تماماً.. تراجع تيرانس في مقعده مكتفياً، يتلذذ بتناول الحلوى الساخنة المقدمة مع القهوة.. كان يجهد نفسه ليكون مؤدباً، وكان بالفعل محدثاً لبقاً.. ولكن أفكارها كانت تنتقل إلى فرانكلين كلما تكلم بتلك اللكنة المميزة.

تلك الليلة نام الجميع أما هي فظلت جالسة أمام نافذتها، تفكر في ما إذا كان تيرانس يشك في أنها أحد المشتركين في مشروع تدبير زواج بينهما.. انسلت منها ضحكة صغيرة فبعدما تعرفت إلى رجل كفرانك، كيف لأي رجل آخر أن يصل إلى مستواه؟.. فكرت حزينة: على تيرانس ألا يقلق بشأني.

تحولت عيناها إلى المنزل الذي لا يكاد يكون مرئياً في مثل هذه الساعة منزل أحلامها. ثم لم تلبث أن قاومت

إحساساً بائساً من الحرمان كان يعتريها دائماً في آخر اليوم.. أين هو فرانك الآن؟ هل يفكر فيها؟ ضغطت بيديها على إفريز النافذة بوحشية.. لماذا تعود بها الذاكرة دوماً إلى فرانكلين هايز؟ ولكن، بعد لحظات، غمرها نوع غير مفهوم من الهدوء والسكينة، والتقطت عيناها، ضوءاً خطيراً مرتجفاً من إحدى نوافذ الطبقة السفلى في منزل العزبة.. وأحست بطريقة ما بالراحة.

عندما نزلت إلى الطبقة السفلى في الصباح التالي كانت الشمس وردية شاحبة فوق التلال البعيدة. قررت أن تُعد كل شيء لعمتها، وضمت شعرها الأشقر الطويل إلى ما وراء أذنيها، ودست يديها في جيبي الجينز الخلفي ثم لما دخل تيرانس من الباب الخلفي ابتسمت مرحبة.

لم يقل شيئاً، بل أحنى رأسه باحترام، ثم استدار ليضع الحطب الذي يحمله على الأرض.. فقالت بإشراق متعمد:

- صباح الخير.. أليس صباحاً جميلاً؟

التفت يواجهها مباشرة، يتفرس في عينيها الخضراوين وفي الظلال المحيطة بهما، كان شعرها يتدلى حول وجهها بموجات ذهبية قاتمة وكان اشقراره يجذب الانتباه فقط إلى شحوب بشرتها الصافية. أحست بالدماء الساخنة تتسلل إلى رقبتها، ودست يديها في عمق جيبيها، محاولة السيطرة على الخجل المحرج الذي بدأ يهاجمها.. كانت طريقتها الوحيدة للدفاع هي الهجوم، فسألته بخشونة وبصوت مرتجف: «هل أعجبك ما ترى تيرانس؟»

- لا أظنك بحاجة إلى من يشير إلى نقائصك.. أليس كذلك؟.

فغرت فاها، ولكن قبل أن تتمكن من استعادة وعيها، دخلت جينفر.

- أوه.. صباح الخير، يا عزيزاي. لقد تأخرت في النوم أشكرك لأنك أوقدت النار.

فتحت باب خزانة المطبخ وأخرجت مقلاة كبيرة، وربطت مريلة بيضاء حول معدتها الكبيرة. فقالت شيلي على عجل:

- دعيني أساعدك. قررت إعداد الفطور نيابة عنك، ولكنني كنت وتيرانس نتعارف.

جلس إلى أقرب كرسي، وأسند ظهره إلى الخلف مراقباً حركاتها. سأل: «أتعرفين الطهي آنسة نوريس؟».

- صدق أو لا تصدق، فأنا بارعة فيه.

عقد يديه خلف رأسه، ومدد ساقيه الطويلتين أمامه!

- آه؟ طبعاً لقد أخبرتني جين أنك سافرت كثيراً وأنك زرت العديد من العواصم الكبيرة في أوروبا.. ولا شك في أنك خبيرة بالطعام.

أوشكت أن تقول إنها زارت المستشفيات ولم تزر المدن، وبما أن المدن جميعها متشابهة من نوافذ المستشفيات، فإن طعم الطعام متشابه في أنحاء العالم أجمع.. لكنها قاومت اندفاعها، فقد يبدو قولها أشبه باستدرار الشفقة وهذا ما تأباه وترفضه مذ كانت في السادسة من عمرها عندما كادت تفقد ساقها.

ردت عليه بعذوبة: «لست ذواقة للطعام، ولكنك ستجدني أشبه عمتي كثيراً. والأطباق الكاملة هي المفضلة عندي».

قالت العمة: «هذا صحيح يا عزيزتي فطالما الطبق دافىء بين جنبيك، فالجسم لا يطلب أكثر من هذا».

هز رأسه معترفاً على مضض بصحة القول، وانكبّ على طبق البيض واللحم يأكله بدون أن يضيف كلمة أخرى.

أنهت جينفر فطورها بسرعة، واعتذرت لأنها مضطرة للرحيل باكراً، فربما استيقظ صاحب السيادة وهو ينتظر الفطور أيضاً.. كذلك، فبعد عطلتها البارحة سيكون هائجاً كالدب.

كان تيرانس ينهي قهوته حين سمعت جلبة من ناحية الدرج، وارتفعت صيحات حادة تثقب الهواء:

- أبي! أبي! لقد رحلت!

تسمّر نيل في مكانه حالما شاهد شيلي تغسل الصحون. كان الكلب يركض بسرعة وراءه، ولم يستطع التوقف في الوقت المناسب، فاصطدم بظهر الصبي، الذي هوى على ساقيه وانتهى الأمر بهما زاحفين على الأرض حتى قدميها.

قال تيرانس بنزق: «كما ترى. إنها ما تزال هنا ولن ترحل قبل وقت طويل».

نظرت إليه غاضبة، ثم انحنت لتساعد نيل:

- وإلى أين ظننتني رحلت؟

التفت إليها متورد الوجه:

- ظننتك قد عدت إلى كاليفورنيا.. فقد قال أبي إنك لن تقيمي معنا طويلاً.

ردت بهدوء مقاومة شعلة غضب:

- حسناً.. والدك مخطىء.. لقد دعتني العمة جين لأقيم هنا قدر ما أشاء، بل لمحت إلى أنها تحب لو أقضي عمري كله هنا.

نظر نيل إليها بعينين برّاقتين: «حقاً؟».

- أجل.. حقاً.. والآن اذهب لارتداء ملابسك وفي هذا الوقت سأعد فطورك. وأراهنك أن يكون جاهزاً قبل أن تجهز أنت.

أبتسمت، تعبث بشعره الرملي اللون. فصاح: «لا، لن تسبقيني».

راقبته وهو يبتعد راكضاً ثم التفتت إلى المغسلة حيث كان تيرانس واقفاً ووجهه بارد وقال لها بخشونة:

- لا أدري من أين لك الجرأة على المجيء إلى هنا؟

سقط فكها، واتسعت عيناها بذهول، ثم على حين غرة، انطلق شيء ما في داخلها، يطلق العنان لسيطرتها على نفسها.

- هذا يكفي!

ضربت يديها على رف المغسلة أمامها، تطلق نفساً أجشَّ وتقول بغيظ: «هلا سوينا هذا الأمر؟».

ما إن أنهت كلامها حتى أحست بالذعر.. لقد خرج منها هذا القول عن غير توقع منها ولكنها مع ذلك واجهته بشكل مباشر قائلة بصوت مختنق مكبوت:

- أشعر بأنك لا توافق على وجودي، ولا أدري ما السبب. إن كان لديك ما تقوله فسأكون شاكرة لو أفصحت عنه بصراحة.

ضاقت عيناه وأصبح فمه خطاً رفيعاً غاضباً.

- حسن جداً.. عودي إلى كاليفورنيا.. فوجودك غير مرغوب فيه هنا.

بدأ ثغرها يرتجف ولكنها تمكنت من السيطرة عليه:

- لماذا؟.. دعتني عمتي لأساعدها في العناية بنيل.

- هذا عذر استخدمته أنت لأن السبب الوحيد لوجودك هنا هو فرانكلين هايز!

انقطعت أنفاسها فجأة وتلاشى اللون عن وجهها وأغمضت عينيها تعصرهما بشدة، لتبعد شرراً أبيض بدأ يتطاير أمام ناظريها. كيف عرف؟

سألت بصوت مخنوق: «من أخبرك عنه؟».

لقد وعدها والدها بألا يبوح شيئاً عن الموضوع. لا أحد غير أفراد عائلتها يعرف كم كانت غبية.

ارتدّ تيرانس عنها، مصدراً صوتاً خفيفاً دليل ازدراء. ينظر من النافذة والعبوس على وجهه.

- وهل حسبتني لن أعرف؟ أنا أعرفه، أكثر مما يعرف نفسه.. ترعرعنا معاً في «بنزانس». كان والدي يعمل عند والده وذلك لم يَحل دون أن تنشأ بيننا صداقة. كنا ذات مرة أكثر من أخوين.

تحرك مضطرباً، وراقبته وهو يضع قبعته العريضة على

رأسه.. وقال بفظاظة:

ـ كنت سأطلب منك الرحيل.. ولكنني أظن أن طلبي هذا سيزيدك تصميماً على البقاء.. فهل نتفق ببساطة على الابتعاد عن طريق بعضنا بعضاً؟

حينما لم ترد بشيء التوت شفتاه، وارتدّ على عقبيه، مغادراً.

مضت عدة دقائق قبل أن تستجمع شتات نفسها.. إن ما حدث الآن هو أسوأ ما توقعته. لقد سافرت ثلاثة آلاف ميل للابتعاد عن ذكرياتها مع فرانك وإذا الأمر ينتهي بها إلى العيش مع أفضل صديق له.

آه!.. فرانك.. فرانك.. أين أنت الآن؟ ارتفعت صيحة ألم في أعماقها. لن تستطيع الحصول عليه.. ولن يكون هناك سواه!

* * *

٣ ـ غابت الشمس من جديد

فيما كان الخريف يجمع فلوله ليحل محله الشتاء، كانت شيلي قد استقرت في حياتها بشكل رتيب رغم وجود تيرانس بارنز.. لقد أحسنت الصنيع عندما قبلت نصيحة والدها وسافرت إلى هذه المنطقة فقد بدأت فعلاً مسيرة الحياة الريفية الهادئة تسحرها وتداويها من علتها.

ما زال فرانكلين يحتل جزءاً كبيراً من أفكارها غير أنها في ذات الوقت بدأت تشعر بألم تخديري عوضاً عن الألم القاسي ذاك.. كان نيل بهجة العناية، وغالباً ما شعرت بالرضى معه أكثر مما كانت تشعر به في وظيفتها الروتينية في مؤسسة إعادة التأهيل... ارتشف نيل رغم خجله وشدة إحساسه، كل الحب الذي أغدقته عليه ونادراً ما التقت بأبيه تيرانس، ذلك أن الحصاد شغل وقته كله وأبعده عن المنزل وكانت تراه حين يتقابلان صدفة مؤدباً، ولكن متباعداً فبادلته بالمثل.

لم يعد تيرانس إلى ذكر فرانكلين ثانية، وعندما كانت تراه كانت تركز تفكيرها على الاختلافات القائمة بينهما وقد

استطاعت صرف النظر عن التفكير فيه نهائياً فهو لا يقاس أبداً بفرانك.

راقبتهما جينفر بلهفة في البداية، ثم بتقبل غير مكترث. . وكانت على ما يبدو تأمل أن تتطور علاقتهما ولكن خاب ظنها.

بعد ظهر أحد أيام كانون الأول، أنهت شيلي كتابة رسالة إلى أبويها، ثم وقفت فترة طويلة تحدق إلى الخارج عبر النافذة. كانت قلقة على غير عادة ولم تدر السبب! تاهت عيناها في أسفل الاودية المنحدرة، وراء الحقول المكسوة، ولكن الاراضي الزراعية لم تكن ما جذب اهتمامها. بل منظر مختلف تماماً هو لصخور منحدرة تعزلها أمواج المحيط الاطلنطي الصاخبة الجبارة. . وهناك رأته واقفاً مديد القامة تتلاعب بثيابه الريح. كان وجهه مرفوعاً إلى السماء الغاضبة، وشعره الأسود أشعث. إنه فرانكلين هايز.

تلوى الألم في أعماقها ولكنها تماسكت ثم لم تلبث أن أشاحت بوجهها إلى غرفة الجلوس الهادئة، حيث كان نيل جالساً على الارض قرب النار، يدلل كلبه. ابتسمت، تقريباً بيأس:

ـ ما رأيك بنزهة نيل؟ سننفض الغبار عن تفكيرنا. .

ـ الغبار؟

ـ من الجلوس الطويل في مكان واحد.

ـ فهمت! إلى أين سنذهب لنتخلص منه!

ـ إلى العزبة؟ فطالما أردت إلقاء نظرة عليها عن قرب.

كانت تحس بجاذبية سحرية تقودها إلى ذلك المكان يوماً بعد يوم، ارتحلت البسمة عن وجه نيل:

ـ تعرفين أننا لا نستطيع الذهاب إلى هناك. تقول العمة إن صاحب السيادة لا يحب أن يقترب الناس من منزله. . هو مقعد ولو رآنا لـ. . .

تغضن جبينها: «لفعل ماذا؟. إذا كان الرجل عاجزاً عن السير فهو لن يقدر أن يفعل شيئاً حتى لو ضبطنا، أليس كذلك؟»

ضحكت ضحكة متآمرة:

ـ وأضف إلى هذا أنه لن يرانا. . ولو رآنا، فلن يهتم. سمعت العمة جين تتحدث عنه، قائلة إنه في الواقع رجل طيب. . وتظنه يشعر بالوحدة، تعال. . كنت أريد القيام بذلك منذ زمن طويل.

وأخذت تزرر له معطفه إتقاء البرد.

بدا لها المنزل مختلفاً جداً عما عهدته في طفولتها. . لم يعد كئيباً مهجوراً بل جليلاً مهيباً وكانت كلما اقتربت منه تضاعف إحساسها بالهدوء والأمان، وبشيء يشبه الانتماء.

المنزل ساكن في جنة ريفية متموجة. . تجري قربه ساقية ممتدة كشريط من الكريستال المتلألىء وصولاً إلى الحقول المحروثة في الوادي البعيد. .

فجأة ارتجف الصغير، فنظرت إلى نيل الواقف إلى جانبها، ممسكاً يدها بوجل.

سألته: «ما الخطب؟»

احتضن يدها: «فلنخرج من هنا».

صدمها الخوف القابع في عينيه فسألته: «أخائف أنت؟».

ـ سمعت أبي والعمة جين يتحدثان عن صاحب السيادة.. إنه مرعب!

ـ نيل.. إنه رجل كغيره من الرجال.. أتظن أن العمة جين تدير له منزله لو كان سيئاً إلى هذه الدرجة؟

ـ قالت إنه وقع عن ظهر حصانه، وكاد يموت، وهذا ما غيّره. وهو الآن «غول» مخيف.. وسينال منا!

ـ رباه! لا أصدق أنها نعتته «بالغول».. لا بد أنك شاهدت برامج تلفزيونية مرعبة.

ولكنها تركته يهرع صعوداً على التل قبلها، حين وصلت إليه وجدته يحتضن كلبه منتظراً وصولها، وقال مصراً:

ـ إنه حقاً غول!

ـ لا أصدق هذا.. هل رأيته يوماً؟ هل تحدثت إليه؟

انخفض ذقنه إلى صدره: «لا».

ـ ها أنت.. أيصبح وحشاً لأنه عاجز عن السير؟ ولو سألت والدك لعاتبك على قولك.. ألم يكن يعمل عنده؟

لم يرد نيل بل ظل يحدثها حتى تعيده إلى المنزل.. ولكنهما لم يتقدما كثيراً حتى سمعا حوافر الخيل فتوقفا والتفتا إلى الفارسين المتقدمين اللذين تعرف إليهما نيل بسرعة، كان أحد الفارسين تيرانس بارنز، أما الآخر الأصغر سناً فكان مختبئاً وراء جسد جواده.

ـ آه.. انظري.. إنه أبي والعمة ستيلا!

وقفت شيلي مسمرة في مكانها، فمها جاف. هذا غير معقول..! مررت يدها على عينيها، تحدق إليهما وهما يترجلان.

وقف تيرانس جامداً ووقفت ستيلا هايز قربه.

لو كانت شيلي ممن يغمى عليهم، لوقعت أرضاً مغشياً عليها، ولكنها لم تكن من هذا النوع فوقفت هناك وموجات الصدمة تتأرجح صعوداً ونزولاً على ظهرها، هل ستلاحقها هذه الفتاة طوال عمرها؟ ماذا تفعل هنا؟.. كيف ستتمكن من إدارة ظهرها والرحيل مرة أخرى بدون أن تبدو غبية؟ ارتجفت ساقاها وتحشرجت أنفاسها، ولكنها لم تستطع أن تتحرك.

تقدم تيرانس إلى الامام:

ـ شيلي، أرغب أن تقابلي جارتنا الجديدة.. ستيلا هايز.. ستيلا هذه شيلي نوريس.

جارة جديدة! صدمتها الكلمة، إن ما تراه وهماً من وحي الخيال، لم تتحرك، ولم تتكلم.. هزت ستيلا رأسها تحييها، وظنت شيلي أنها رأت وميض الشفقة في عينيها السوداوين.. لكنها بدون شك تتخيل.. الشفقة؟ ومن زوجة فرانكلين؟

قطع نيل عليهما هذه اللحظة مطالباً بالاهتمام، بصوت مرتفع.. نبح الكلب بانفعال.. فسارعت ستيلا إلى إسكاته.. أما تيرانس فقال وهو ينظر إلى شيلي باستغراب:

ـ ستيلا صديقة حميمة منذ سنوات. عندما سمعت اسمك في الأمس جاءت خصيصاً لملاقاتك.

أبعدت عينيها عن ستيلا ثم أسرعت مبتعدة. ماذا يتوقعان

منها أن تفعل؟ هل حسباها ستقف سائلة كيف حال فرانك؟ هذا كثير! انهمرت دموع حارقة أعمت بصرها وكادت تتعثر في طريق العودة إلى المنزل..

لماذا لا ينتهي ذلك؟ فهي ما زالت تحب فرانك مع أن زواجه بتلك الفتاة جعله أبعد من المستحيل عن منالها.

لا بد أنها نامت آخر الأمر، لأن الظلام كان حالكاً عندما جلست ثانية في سريرها، تحاول أن تسترد وعيها قبل أن يعود الاحباط إليها مرة أخرى.. أحست بعينيها متورمتين وجافتين. تأوهت ثم دفعت يدها إلى شعرها المبعثر.. فرانكلين! فرانك وزوجته جيران جدد!

خلعت ملابسها وارتدت غلالة نوم ورداءً سميكاً، ونزلت إلى المطبخ.. لم تكن جائعة، ولكن لا بأس ببعض الحليب الساخن فقد يساعدها على النوم مجدداً.

المنزل ساكن، والمطبخ بارد، أضاءت مصباحاً صغيراً قبل أن ترمي بعض الحطب في الموقد لتشعل النار.

حين سخن الحليب، سكبته في كوب سميك ولكنه كاد يقع منها فجأة لأنها وجدت تيرانس واقفاً بالباب مستنداً بإهمال إلى جانبه، ينظر إليها، ببرود وقسوة.

قالت مرتبكة: «خلتكم جميعاً نياماً».

بدت تعابيره غير مقروءة ولكن عندما تكلم جاء صوته بارداً: «اجلسي».

جلست إلى كرسي، تواجهه وهي لا تجرؤ على إبعاد عينيها عنه... ابتسم بتجهم، وتقدم إلى الخزانة ليخرج كوباً

ويسكب الحليب لنفسه، ثم استدار، يثبت عينيه الشرستين عليها.

رفرفت عينيها وابتلعت ريقها، ثم وقفت تقصد الهرب.. ولكن قبل أن تتحرك، دار حول الطاولة ووقف أمامها. فكرت لبرهة في مناداة العمة جينفر ولكنه قال بصوت منخفض:

- لن أفعل هذا لو كنت مكانك.. لأنك ستوقظين نيل. عمتك غير موجودة فقد أرسلت رسالة تقول فيها إنها باقية في العزبة الليلة. فهناك ضيف، أو ما شابه.

عادت إلى كرسيها، وأطلقت أنفاسها التي حبستها ببطء.. والآن.. ماذا؟ أحست فجأة بالغضب منه.

- كنت فظة إلى حد كبير مع ستيلا اليوم.

آه. أجل.. ستيلا.. أمسكت كوب الحليب بين يديها، تحاول التزود ببعض الدفء منه:

- حسناً..؟ أليس هناك ما تدافعين به عن نفسك؟

- لست بحاجة إليك لتدلني على أخلاقي السيئة تيرانس! إن ستيلا تعرف سبب تصرفي.

هبطت قبضته فوق الطاولة بقوة ساحقة، جعلت الكوبين يقفزان من مكانهما:

- يا إلهي! أليس لديك ضمير؟ لقد استخدمت فتنتك لتمزقي رجلاً إرباً إرباً ثم أراك تجرؤين على الجلوس هنا بوقاحة وكأن لا همَّ عندك.

تركت عيناها وجهه، لتستقرا على كوبي الحليب.

- لا أدري عما تتحدث.

- ألا تدرين؟ ألم أوضح ذلك بنفسي تماماً. . . إنها الطريقة التي تخليت بها عن فرانكلين.

جلس ببطء فوق كرسي وعيناه ثابتتان عليها، تحثانها على الرد.

- وماذا انتظرت مني؟ ما كنت ستفعله أنت لو كنت مكاني؟

- لو أحببته لما تخليت عنه بل لمكثت قربه. ولكنك عندما واجهت واقعاً مراً ابتعدت عنه تاركة إياه وحده، يلملم بقايا حياته المبعثرة.

وقفت مرتجفة من الغضب: «لا يحق لك أن تقول هذه الكلمات، فأنت لا تعرف شيئاً أبداً عما أشعر به تجاه فرانك».

- آه! ألا أعرف؟

ارتجفت شفتاها: «لا تتصور كم تجرحني بكلماتك».

- لو كنت تحبينه، لما تركت جرحاً صغيراً يوقفك. . لو كنت مهتمة لأمره، لبقيت معه، ولقدمت يد المساعدة.

- جرح صغير؟ أبقى معه؟

- لقد تخليت عنه عندما أصبح بأمسّ الحاجة إليك. وعدته بالزواج.

دفع نفسه مبتعداً عن الطاولة، ثم اشتعلت عيناه:

- إنه صديقي، أتظنين أنني لم أتمزق ألماً بسبب ما فعلته؟

- وماذا كان علي أن أفعل بستيلا؟ هل أتجاهل وجودها؟ أتظاهر أنها غيرُ موجودة، كما تظاهر يوم طلبُ الزواج بي؟

- ما كان عليك القلق بشأنها. . ما كانت لتقف في طريقك. . إنها فتاة متفهمة وهي تحب فرانك. . وهذا ما لا أستطيع قوله عنك. . إنها على الأقل، تهتم بسعادته.

نظرت شيلي إليه بشدة:

- هل أنت مجنون؟ هل فقدت عقلك؟ ما من زوجة قد تترك زوجها لامرأة أخرى. . لن تفعل هذا إذا كانت تحبه بل ستقاتل للاحتفاظ به، على الأقل هذا ما كنت سأفعله ولكنني اضطررت للتخلي عنه لأنني لا أملك الحق في حبه أساساً. إنه ملك لستيلا!

رفعت يداً مرتجفة إلى شفتين مرتعشتين. كيف كشفت مشاعرها بهذه الطريقة؟ ومع ذلك أردفت:

- أنت لا تعرف فرانك جيداً، وأنا لم أعرفه قط. . ماذا قال لك بالضبط؟ أم أن ستيلا هي من أخبرتك؟ أنت لا تصدق حقاً أن زوجته لن تضع حداً لكل ما كان بيننا. . . أتصدق؟

نظر إليها وكأنه لا يصدق ما تقول. . . بدا على وجهه التردد ثم لم يلبث أن نظر إليها وقد فهم ما جرى. . انحنت كتفاه ثانية، ثم همس بصوت أجش:

- أوه. . يا إلهي! ألم يخبرك. . إنه ليس ملكاً لستيلا. . ليس بتلك الطريقة.

ردت بقلب واجف: «وهل هناك من طريقة أخرى؟».

حرقت عيناه عينيها: «يا لكبريائه اللعينة، لم أظن لحظة أنه قد يذهب إلى هذا المدى. . ستيلا ليست زوجته. . بل ابنة عمه!»

نظرت إليه فاغرة فاها وبدأت الغرفة تميد بها، وقالت هامسة:

- لماذا؟.. لماذا ادعى أنها زوجته؟

- انها الكبرياء.. لم يشأ أن تعرفي..

هزت رأسها ثم اجتاحها خوف بارد مفاجيء.

- ما الذي لم يشأ أن أعرفه؟

سحب نفساً عميقاً، وكتمه قبل أن يزفره مرة أخرى ببطء.

- أنت لا تعرفين حقاً ما جرى.

- أخبرني..!

جلس أمامها صامتاً.. أما عيناها فتفرستا فيه حتى كادتا تخرجان من محجريهما.

- هل الأمر بهذا السوء؟.. أرجوك! أخبرني!

واجهها بوجه متجهم:

- حسن جداً شيلي.. فرانكلين هايز، هو الرجل الذي تسميه عمتك «صاحب السيادة».

أحست أن لطمة قوية أصابتها.. صاحب السيادة الرجل الانكليزي.. المقعد في الكرسي المتحرك؟

نظرت إلى تيرانس قائلة بصوت متقطع:

- ظننته يعيش في.. كرونويل.. أخبرني.. كيف.. متى..؟ آه يا ربي.. ظننت.. وكان هنا طوال الوقت.. كيف..؟ تيرانس!

وضمت يديها بشدة إلى وجهها.

- سنخبرك ستيلا كل شيء.. كانت موجودة. تريد أن تأتي في الصباح لتشرح لك كل شيء.. هل تستقبلينها؟

- أريد رؤية فرانك..! هو هنا قربي وأنا لا أعرف.. كنت أنظر إلى منزله.. منزله!

- لا تستطيعين رؤيته.. يا الله! لن يسمح لك بمقابلته، خاصة بعدما ادعى تلك الادعاءات ليحول دون أن تعرفي الحقيقة.

- لم أكن أعرف.. أفهم الآن سبب غضبك مني.

تصاعد الاحمرار إلى وجنتيه: «أعتذر عما بدر مني».

- الأمر لا يهم الآن بل من يهمني الآن هو فرانك. ماذا أستطيع أن أفعل؟

- انتظري ستيلا حتى تخبرك كيف حدث كل شيء.. ثم سنفكر في طريقة ما.

بعدما استحمت وارتدت ملابسها. حاولت التمسك بالواقع ولكن تحركاتها جميعها تخدّرت. مقعدها قرب النافذة كان غير مريح وجلست مرتجفة تتطلع إلى المنزل أسفل الوادي.. منزل فرانك.. وانقبضت أصابعها بوحشية..

آه.. فرانك.. كيف استطعت فعل هذا؟

حين وصلت ستيلا أخيراً، وجدتها شيلي تجلس إلى طاولة المطبخ تنظر نظرة عميقة إلى تيرانس بحيث نسيت ما يحيط بها، ولكن نيل لم يلاحظ هذا، وركض إليها يتحدث إليها.

وقف تيرانس يضع معطفه على كتفيه:

- ليس الآن يا بنيّ.. لدى العمة ستيلا وشيلي حديث خاص.. ستراها فيما بعد.

رمى ستيلا بنظرة مشجعة ثم اعتلت شفتيه ابتسامة حينما أدرك أن شيلي فهمت ما شاهدت..

مسحت شيلي يديها إلى جانبي سروالها، وجلست في المقعد الذي أخلاه تيرانس لتوه، تنظر إلى ستيلا، عاجزة عن قول شيء.

بدت ستيلا كئيبة، وكانت ترتدي بذلة صوفية مع كنزة بنية قاتمة مرتفعة الياقة..

- سامحيني على مجيئي باكراً آنسة نوريس.. لكن كان علي مقابلتك.

كاد صوتها يتلاشى. لن تستطيع ستيلا إلا أن تحب هذه الفتاة.. فتنهدت، محاولة الابتسام.. فأكملت ستيلا:

- يحق لك أن ترفضي التحدث إلي.. ما كان علي مشاركة فرانك في خدعته الرهيبة في ذلك الوقت، لم أدرك أنك لا تعرفين شيئاً عن حادثته..

طأطأت برأسها تنظر إلى يديها:

- قال لي تيرانس إنه تحدث إليك ليلة أمس وشرح كل شيء.. والآن لا يسعني إلا أن أقول آسفة.

أبتلعت شيلي ريقها: «كيف حال فرانك؟ أهو.. بخير؟».

- إنه على ما يرام حقاً. مع أن ظهره يؤلمه بسبب تغيّر الطقس.

- أهو سعيد؟

ترقرقت الدموع في مآقيها قبل أن تنهمر على وجنتيها.

- لا! ليتني لم أحاول أن أعتلي صهوة «ساتان» الشيطان...

قاطعتها شيلي بعذوبة: «ابدئي من الألف إلى الياء، إذ لم يخبرني تيرانس إلا القليل».

- كنت أعيش في «بنزانيس» مع عمي لانسر، والد فرانك.. حين مات، عاد فرانك للمشاركة بالجنازة.. و.. وكان كريهاً معي، فقد امتعض من صداقتي لاحد الأشخاص.. قال إنه وصيي وإنه ليس ليناً كأبيه ثم أضاف أن علي مرافقته إلى هنا لأعيش في منزله الجديد مع عروسه. لكنني لم أشأ العيش في بلد أخرى.. كرونويل كانت كل ما أريده، لكنه أبى لأنه قرر العيش في العزبة هنا دائماً ثم أصر على أن أرافقه رغماً عني.

التوى وجهها بحرارة قبل أن تنهمر المزيد من الدموع:

- كنت غاضبة.. وهربت من البيت و.. رأيت «ساتان» متوقفاً هناك.. وساتان هذا حصان فرانك وهو وحده من يستطيع السيطرة عليه.. قفزت عن غير وعي إلى ظهره، واتجهت نحو الصخور.. كانت السماء ممطرة، والأرض زلقة فلم أستطع رؤية طريقي..

رفعت شيلي يداً مرتجفة إلى عنقها، تتصور الأمر. كان وجه ستيلا شاحباً، وأنفها سائلاً. فجأة بدت لها صغيرة، عاجزة.

ـ كان الأمر رهيباً آنسة نوريس.. حاول فرانك اللحاق بي.. ركض وركض ولكنني لم أصغ إليه حين صاح بي أن أقفز.. فجأة تشابكت أقدام «ساتان» بالزمام ووقعنا معاً.. رماني الجواد بعيداً، أما فرانك فوقع في الوحل تحت أقدام الجوادين.

صدر عن حلق شيلي آهة، وأحنت رأسها..

ـ لقد تأوه وتأوه..! كسر الجواد ساقيه ولم يستطع الوقوف، وعلق فرانك تحته، ووقفت أنا عاجزة وعندما هرعت أخيراً لأحضر المساعدة، وجدته فاقد الوعي، ولم يستيقظ إلا في المستشفى، وهناك قال له الأطباء، إن عموده الفقري مصاب، وإن عليهم إجراء عملية جراحية خطيرة ولكنها لم تنجح... بعد هذا.. طلبوا منه أن يستعدَّ نفسياً لقضاء ما تبقى من حياته على كرسي بعجلات.

لم يسمع في المطبخ سوى نحيب ستيلا أما شيلي فلم تستطع إلا الجلوس هناك مخدرة الأحاسيس، تتصور الرجل الذي تحب، مغطى بالوحل، مستلقياً بعجز، على صخور ساحل كرونويل الرازح تحت المطر ثم نائماً في المستشفى، وأخيراً وجد صوتها مخرجاً.

ـ أوقع ذلك عندما انقطع عن مراسلتي؟

هزت ستيلا رأسها:

ـ قال إنه لن يستطيع الزواج بك بعد الآن فهو لا يستطيع أن يتحمل أن تريه على تلك الحالة كما أن كبرياءه رفضت شفقتك.

ـ لكنه عاد إلى كاليفورنيا.

مسحت ستيلا عينيها: «لم يشأ رؤيتك، فما ذهب إلى كاليفورنيا إلا لأنهم أخبروه بوجود طبيب متخصص بأمراض العمود الفقري.. وقال إنه أمله الوحيد».

ـ و..؟

ـ أكد الطبيب أن الاصابة جديدة، وكذلك العملية.. ثم قال له إنه سيعاينه لكنه لا يريد أن يتفاءل كثيراً. ولم يبدُ لنا هذا مشجعاً.. يشعر بألم في قدميه من وقت إلى آخر، لكنه لا يعني شيئاً.. أمره.. ميؤوس منه!

زفرت شيلي، ومررت يدها على عينيها، وقالت:

ـ وهكذا قدمك لي وكان أن ادعى أمامي أنك زوجته وبذلك ضمن ألا أعود إلى رؤيته ثانية..

أطرقت ستيلا، ثم رفعت عينين متوسلتين:

ـ لم أكن أعرف أنه سيفعل هذا.. عندما رأيتك خلت لوهلة أن الحياة ستعود إلى مجاريها في ما بينكما.. عرفت من مجرد النظر إليك أنك تحبينه حباً جماً. ثم ادعى أنني زوجته فوقفت عاجزة عن التفوه بكلمة. بعد رحيلك، قال لي إنني إن لم أخبرك بالحقيقة غفر لي ذنبي. بقيت في كاليفورنيا قدر ما استطعت ولكنني كنت مضطرة للعودة.. أعرف أن مكاني هنا إلى جانبه، حتى وإن قال إنه لا يهتم بما أفعل أو إلى أين أذهب.

وقفت شيلي، وسارت نحو النافذة.. كانت الغيوم رمادية. لن تشرق الشمس اليوم وهذا يناسب مزاجها. حاولت

سحق الإحساس المتوتر المتصاعد والتفتت إلى ستيلا تواجهها:

- لماذا قررت الاعتراف بذلك الآن؟ مضى على وجودي في المنطقة شهرين فلماذا الآن؟

- ألا تفهمين؟ كنت في كاليفورنيا ولم أعد إلا منذ يومين كما أنني لم أعرف أنك.. أنت.. ذكرتك جينفر على أنك أبنة اخيها فقط ولم تذكر اسمك. بالأمس ذكرته أمامي لأول مرة قالت إنها تأمل أن تقيم لك حفلة ميلاد رائعة لأنك بدوت مشتاقة إلى أهلك. ظنّت أنك اشتقت إلى لوس انجلوس..

- هل أخبرتها شيئاً؟ أيعرف فرانك؟

عضت ستيلا شفتها، ووقفت على ساقين مرتجفتين.

- لا.. أنا واثقة أنه لم يعرف.. فأنا لم أقل شيئاً لأي منهما بل جئت أرى تيرانس فوراً فقد يصاب فرانك بنوبة عصبية إن عرف... ثم رأيتك بالأمس.

أحست شيلي بعودة الاحمرار إلى وجهها:

- أعتذر عما بدر مني من تصرف. كنت أظنك زوجته، والأنكى أنني فوجئت بك هنا.

- أفهم هذا حقاً.. قال تيرانس إنك لم تعرفي حتى بوجود فرانك هنا، لأن جينفر لم تكن تناديه إلا باسم صاحب السيادة.

لوت ابتسامة حزينة ثغرها:

- كان هذا اللقب أحد الأسباب التي جعلته يترك بترانس. أحس بأن لقبه يقيده وأراد أن يكون رجلاً عادياً.

وضعت يدها على ذراع شيلي:

- آنسة نوريس.. أمن الممكن أن نكون صديقتين؟ هل تساعدينني لمساعدة فرانك؟ إنه يحتاج إليك!

غطت شيلي يد الفتاة بيدها الناضحة عرقاً:

- يناديني أصدقائي شيلي.

وتهدج صوتها، ثم بدأت الفتاتان بالضحك، والبكاء، في آن واحد.

* * *

٤ ـ عالمان مختلفان

عندما عاد تيرانس كانت الصدمة قد بدأت تخفُّ تدريجياً من نفس شيلا.

قالت ستيلا له دامعة العينين:

ـ أخبرتها كل شيء.

ـ وهل فكرتما في حل؟

قالت شيلي وهي تفرك يديها دليل التوتر:

ـ سيرفض مقابلتي، مهما كانت الذرائع، أنا واثقة أنه لن يسمح لي بدخول منزله.

ـ آه لم أفكر في هذا. أنا رومانسية بطبعي وقد اعتقدت أن المياه ستعود إلى مجاريها بينكما حالما تلتقيان من جديد.

صمتت، واتسعت عيناها سائلة:

ـ هل سيتغير حبك له بعدما أصابه ما أصابه؟

همست شيلي: «بالطبع لا فأنا لم أتوقف عن حبه».

التوى ثغرها ببسمة رضى:

ـ حسن إذن.. الحب يجترح المعجزات.. عندما تربنه سيعود كل شيء إلى طبيعته.

قاطعها تيرانس بخشونة، محاولاً عدم إظهار سخطه:

ـ ولكن.. كيف ستراه؟ هنا المشكلة.

رفعت ستيلا رأسها بحدة، وضربت الأرض بقدمها بنفاد صبر:

ـ ألا يمكنك التفكير في طريقة ما تيرانس؟ إنه الآن لا يفعل شيئاً سوى الجلوس بمفرده أمام النار والأنكى أنه أبعد كلبه الذي كان يسليه عنه وربطه إلى وتد خارج المنزل. لقد فقد الاهتمام بكل شيء.. وحتى جينفر باتت عاجزة عن الوصول إليه.

فركت شيلي يديها: «علينا مساعدته».

قالت ستيلا: «وماذا بيدنا أن نفعل؟ أيمكنك التفكير في حل تيرانس؟ هاك القهوة.. أنت تفكر دائماً بشكل أفضل ومعدتك ممتلئة. أتذكر ذلك الميلاد مع السير كامبدون؟ لقد تناولت الكثير من حلوى البرقوق، ثم قلت إنك مضطر لهذا لتستطيع التفكير.. وقال فرانك معلقاً إن تركيبتك مختلفة دون شك عن تركيبتنا. عقولنا في رؤوسنا، أما أنت فعقلك في معدتك».

احمرّ وجه تيرانس، وتقبل القهوة بخجل، يرفع رأسه:

ـ كنت يومذاك صبياً في السابعة عشرة أما فرانك فكان في الثانية والعشرين وقد نسي كيف تكون مرحلة المراهقة. كنت بحاجة إلى الغذاء أما فرانك فلم يكن بحاجة إليه لأنه كان قد تجاوز مرحلة المراهقة.

ردت ممازحة:

- لم يكن أحد يحتاج إلى الغذاء كحاجتك إليه!

قفز واقفاً: «وجدتها».

كادت ستيلا وشيلي تقفزان عليه: «ما هي؟».

- أقنعي فرانك بإقامة حفل ميلاد كما كان يفعل السير كامبدون العجوز.

- كان السير كامبدون عرابي الذي أشفق على اليتيمة المسكينة الصغيرة.. كنت أديره كالخاتم في إصبعي الصغير.

- وبات فرانك الوصي عليك.. على الأقل، سيبقى هكذا حتى تتمكني من تدبير أمرك بنفسك..

قالت شيلي بصوت منخفض: «وكيف سنحقق ما نريد بهذه الحفلة؟».

- إنها البداية. ألا ترين هذا؟ سيكون محاطاً بالناس عوضاً عن الجلوس بمفرده كئيباً وسيضطر ساعتئذ إلى أن يفهم أنه ما زال الرجل الذي كان رغم عجزه.

هزت شيلي رأسها: «لن يخدعه شيء كهذا تيرانس، لن يقبل».

- أنت لا تعرفين ستيلا.. ثم انها الطريقة الوحيدة لتربه.. لن يرفض ضيافتك إن كان محاطاً بالناس.. فكرامته لن تسمح له الرفض.

صفقت ستيلا يديها تشبكهما، وعيناها تلمعان:

- وستقيم شجرة ميلاد، وهدايا، وحفلاً راقصاً خيالياً!

- لا تنجرفي كثيراً.. الحفلة لصالح فرانك لا لصالحك. ولا أريد أن تتنفسي بكلمة عن وجود شيلي، وإلا أحبطت

مخططنا.. أما الآن فنأمل ألا تذكر جينفر اسم شيلي أمامه.

تجهم وجه ستيلا، لكنها أبقت معنوياتها مرتفعة:

- سأذهب الآن لأباشر بالتملق.. تمنَ لي الحظ الطيب يا تيرانس.

راقبها تيرانس في النافذة وهي تبتعد ثم استدار إلى شيلي:

- أتصدقين أنها في الرابعة والعشرين؟ هي بعمر زوجتي جولي.. لكنها تبدو أصغر من ذلك.. وقد لا تكبر أبداً، لا شك أن فرانك سيظل مشغولاً بها.

ارتجفت شيلي لتفكيرها بفرانك محطماً فوق الوحل، بسبب طيش ستيلا وعنادها.. وسألته:

- أتظن أن خطتك ستنجح؟ هل ستغير الحفلة من موقفه؟

- يجب أن تفعل!

- لكن، ماذا لو رفض؟ لقد مر زمن طويل منذ أن انقطع عن الناس جميعهم بمن فيهم أنت؟ وأنت أعزّ أصدقائه.

- كنا كذلك في طفولتنا ولكن وقعت بيننا أمور كثيرة منذ تلك الأيام.. فرانك، ستيلا، جولي، وأنا...

تنهد تنهيدة عميقة:

- فيمَ تفكر تيرانس؟ أستطيع رؤية أفكارك تدور.

ازدادت ابتسامته عمقاً ولكنه لم يجب.

* * *

ذلك المساء، عادت جينفر إلى البيت وفي جعبتها أخبار كثيرة عن حفلة الميلاد المرتقبة التي ستقام في العزبة:

ـ لا أدري كيف تمكنت ابنة عم سيادته من إقناعه. خاصة وإن عيد الميلاد لا يبعد سوى أسبوعين لكنها ستكون حفلة عيد ميلاد حقيقية. ما كنت لأظن أنني سأرى اليوم الذي سيسمح فيه بعودة الناس إلى حياته. ابنة عمه تلك صاحبة معجزات.

نظر تيرانس إلى شيلي، وعيناه تبرقان، ولكنه لم يتفوه بكلمة. فجأة بدا لها صغيراً ضعيفاً مثلها.

* * *

حين رأت شيلي فرانكلين ثانية، أحست بالاختناق. علماً أن الاسبوعين الماضيين كانا جحيماً بطيئاً بالنسبة لها فيهما هيأت النفس لقول ما تريد ولكنها لم تكن مهيأة للتغيير المأساوي الذي حل به.

لقد توارت الحفلة الصاخبة الهازجة خلف باب مكتبته المظلمة الضخمة..

وقفت متوترة، تستند بكتفيها إلى الباب المحفور طلباً للدعم، تراقبه وهو يجلس أمام المدفأة الرخامية السوداء وظهره إليها، بحيث لم تكن ترى سوى جانب صغير من وجهه. كان شعره أطول، لكنه ما زال كثاً أسود. وكان جسده الطويل، منحنياً إلى الامام في الكرسي النقّال، وكأنه يحاول جذب الدفء من النار الخامدة.

عندما خطت نحوه خطوات مرتبكة رأت جواً من الاهمال يحيط به، وقد جعلها هذا الجو ترغب في الصراخ احتجاجاً على الظلم الذي حل به والذي جعله هزيلاً مرهقاً ومهزوماً

ولعل اللون الرمادي حول فمه، والكآبة في عينيه، هما ما سببا لها أعظم الألم. كانت تنظر إلى شاب فقد الكثير من وزنه، وكبر في العمر بشكل رهيب، والأنكى انه بدا فاقداً الأمل.

قاومت لإبعاد العذاب عن صوتها، وقالت بهدوء وبصوت منخفض: «ليس للحفلة طعم بدونك»

ساد صمت رهيب.. ثم سمعت صوت طقطقة هائلة صادرة عن قطعة حطب ضخمة محترقة وقعت منقسمة في الموقد.. رفع فرانكلين رأسه إلى الوراء، بكبرياء واستقلالية ثم استوى في جلسته متوتراً، يصغي بجمود بدون أن يستدير إليها.. أكملت المسير بساقين واهنتين مختبئتين تحت فستان صوفي طويل حاكته العمة جينفر لها حتى وقفت أمامه.

ـ الضيوف يتساءلون لماذا لم يظهر مضيفهم حتى الآن.

انقبضت يداه في حركة عنيفة على ذراعي مقعده، وكأنه يتمنى لو يستطيع أن يثب واقفاً ليضع آلاف الأميال بينهما.. لذعتها عيناه بإنكار غاضب. ثم مرر يده على وجهه الرمادي، قبل أن يطلق أنفاسه:

ـ بت تعرفين الآن.

ـ أجل.. بت عارفة بما حل بك.

استدارت لتمد يديها إلى النار، وكأنها تطلب الدفء. لكنها كانت حركة دفاعية لتمنعها من رمي نفسها بين ذراعيه. وسألته بمرارة، تستدعي الغضب ليحل محل كل الحب الذي يزحف إليها، حباً تعرف نعم المعرفة أنه سيرفضه.

ـ كيف أخفيت عني ذلك؟

ـ أخفيته من أجلك أنت، ولكنني واثق أنك لن تفهمي هذا.

استدارت تواجهه: أفهم؟ لا، لا أفهم.. كيف تتوقع مني أن أفهم؟ ألديك فكرة عما فعلته لي؟

لم يشح بوجهه عن نظرتها المتهمة.. جلس ساكناً ينظر إلى النار الخضراء المتقدة في عينيها، ثم قال بصوت ميت العاطفة:

ـ لا أريد رؤيتك شيلي.. أنت ترين الآن أنني لست الرجل الذي كان، انظري إلي جيداً، ثم أقفلي الباب وراءك أثناء خروجك.

حبست أنفاسها بحدة، ثم ترقرقت دموع حارقة برّاقة في عينيها:

ـ لا تفعل ذلك فرانك.. لقد نجحت مرة في إبعادي عنك، إنما لن تنجح ثانية.

أمسك ذراعي مقعده بشدة حتى كادت تسمع تحطمهما.

ـ لا أريدك هنا!

ـ أنت لا تعني ما تقول!

ـ اخرجي من هنا شيلي!

ارتجفت: «وكيف أستطيع ذلك؟ أفهمني كيف؟. لقد نجحت في إبعادي عن حياتك ولكن كيف علي أن أنساك؟».

أدار وجهه ينظر إلى النار المستعرة في الموقد:

ـ أصبح الأمر سهلاً بعدما رأيتني على هذه الحال.

ـ لا أصدق هذا.. هل استسلمت؟

ـ بل انهزمت.

ـ طالما ظننتك رجلاً قوياً.

رد بصوت هادىء كالاموات:

ـ اخرجي من حياتي شيلي.. لقد جرب الكثيرون قبلك وفشلوا. لا أحتاج إلى صدمة نفسية معاكسة.

ـ إلام تحتاج إذن؟

نظرت إليها عيناه البارقتان ثم انسلت منه ضحكة قصيرة لا شفقة فيها:

ـ لست أنت من أحتاج إليه لا أدري كيف وجدتني، أو لماذا أتيت.. ولكنني أريد أن تذهبي من هنا حالاً. كانت رحلتك بدون جدوى. عودي إلى كاليفورنيا فأنا لم ولن أتحمل شفقتك.

رفعت رأسها وكأنها تستمع:

ـ لا أسمع عزف كمان مؤثر.. من المفروض أن يعزفوا عزفاً حزيناً كئيباً لينسجم مع ما تقول.. فما تقوله أكثر الاشياء استدراراً للبكاء، بعد قليل ستقول لي إنك نصف رجل.

مال إلى الأمام ووجهه يتلوى ألماً، ونار غاضبة تثب إلى عينيه الكليلتين:

ـ أخرجي من هنا!

ـ وماذا إن اخترت البقاء؟ هل سترمينني إلى الخارج بنفسك؟ أتظن أنك ما زلت قادراً على هذا؟

صاح ينادي خادمه، بصوت راعد:

- آدم!

ابتسمت بهدوء، ولكنها لم تتمكن من إخفاء نظرة الخبث من عينيها:

- لا تضيع أنفاسك حبيبي.. آدم لن يأتي.. تيرانس يلهيه حتى أتمكن من محادثتك.. ولو سمعك آدم تصيح لجعله تيرانس يتجاهل الرد عليك.

وقفت أمامه والمدفأة خلفها، ويداها على خصرها، وشعرها الاشقر متجمع على قمة رأسها ولكن ذلك لم يمنع دون تسلل بعض الخصلات إلى عنقها النحيلة.. للفستان الذي ترتديه ياقة مجوفة وأكمام طويلة ضيقة، أعطتها مظهراً رقيقاً هشاً.

ضم قبضتيه في حجره قبل أن يتنهد بمرارة. ثم ازرقت خطوط فمه القاسية، وقال بصوت مخنوق غليظ: «تيرانس بارنز؟».

هزت رأسها إيجاباً. تحس فجأة بأن الجو قد تبدل إلى غضب من نوع آخر. جلس مستقيماً، وكأنه يهيء نفسه لشيء ما:

- حسن جداً شيلي.. أنا أسيرك المستمع.. ماذا أملت أن تكسبي من مجيئك إلى هنا؟

- لا شيء أقل من الزواج!

أذهله وقاحتها: «أنت تمزحين شيلي لقد تغيرت، بتنا غير قادرين على الرجوع إلى الخلف، لقد ولى عهد المعجزات أنا مقعد»

- فرانكلين هايز الذي أعرفه، ما كان ليستسلم بسهولة.

- .. أوضحت أن ما كان بيننا انتهى.

- لا، أرفض أن ينتهي. طلبت يدي للزواج، ولن أسمح لك بالتهرب بسبب ما أنت فيه.

وربتت ذراع مقعده.. فقال ساخراً:

- يا إلهي! لا نعيش الآن في رواية غرامية حيث كل ما عليك قوله «أنا أحبك» ليسعد الجميع. إننا على أرض الواقع.

صدر عنه صوت مخنوق، وأدار وجهه المتجعد بعيداً عنها.. فنظرت إليه عاجزة:

- ربما أكون رومانسية.. ربما أؤمن بالنهايات السعيدة.. ولكنني.. أحبك فرانك، ولا أهتم بعجزك عن السير أبداً.

جثت على ركبتيها أمامه:

- حاولت اقتلاع حبك من صدري وفي ظني أنك متزوج لأنني كنت أعرف أن من الخطأ أن أحب رجلاً متزوجاً، ولكنني لن أرضخ لما تطلبه مني رغم ما فعلته لقتل هذا الحب.

مرر يديه على وجهه، وركز نظرته على يديها الممسكتين بساقيه الخاليتين من الحياة:

- حتام ستبقين على حب رجل عاجز؟ وبعد كم من الوقت ستضجرين من النظر إليّ وأنا جالس هنا، يوماً بعد يوم، سنة بعد سنة؟ أنت شابة مفعمة بالنشاط والحيوية، وأنت بحاجة إلى رجل كامل يستطيع أن يوفر لك حياة كاملة لا تضطرين فيها إلى التضحية للعناية به.

التمع العذاب في أعماق عينيها:

- أليس هذا ما يعنيه الحب؟ العناية؟ كما أنك لست مضطراً للجلوس هنا.. ثمة أشياء كثيرة يمكنك القيام بها بدون ساقيك.. يبدو الأمر في الوقت الحاضر مستحيلاً ولكن المستحيل غير موجود عندما يكون الأمل.

قرّب وجهه من وجهها، وشد على عضلات فكيه:

- أهكذا ترين نفسك؟ أترين نفسك النور الذي يظهر في آخر نفق مظلم؟ لا أحتاج إليك لتهبيني الأمل.

حبست أنفاسها بحدة، تقاوم لتسيطر على ألمها الذي غمرها: «ربما لا تحتاجني فرانك لكن.. هل تحبني؟».

ابتلعت ريقها بقسوة تنظر إليه بخوف. جلس بلا حراك يحدق إليها بعذاب. فجأة رقّ فمه الغاضب، ثم امتدت يداه إلى كتفيها، تنقضان عليها وتشدانها إليه بضمة ساحقة، فيها لهيب متصاعد من العجز المكتوم والشوق الذي طال كثيراً.

كان ذراع مقعده يحفر في جبينها لكنها لم تحس به.. بل شعرت بالنشوة لأنها أخيراً بين ذراعيه حيث تشعر بدفئه وقوته اللتين تبعثان الحياة من جديد إلى قلبها الميت. انسلت ذراعاه إلى ظهرها، بإلحاح تشدانها إليه أكثر فأكثر، ثم أخذت شفتاه تلثمان وجهها وعينيها و....

تجاوبت مع عناقه بعنف مماثل فانعقدت أصابعها في شعره الكثيف الطويل وحاولت أن تذيب جسدها على صدره.. ولكنها عجزت عن ذلك لأن ركبتيه تحولان بينها وبين ما تريد.

ثم أحس بوضعها المربك، فسرت رجفة عميقة فيه، وأطلق آهة كراهية للنفس، ودفعها عنه، تاركاً إياها تشعر بالحرمان.. وتمتم من أعماق حنجرته ووجهه يلتوي اشمئزازاً:

- كيف لأي منا أن يكتفي بنصف عناق؟ أتذكرين كيف كنا؟ أتذكرين كيف كنت تنسجمين مع ذراعي، وتذوبين على جسدي وكأنك جزء منه؟ والآن.. هذا!

ضرب قبضته على ذراعي مقعده..

- هذا لا يهم بل ما يهمني هو حبنا..

رد بصوت يرتجف كراهية، والكلمات تخرج مخنوقة:

- لا يعني الحب شيئاً.. وطالما ارتكبت الخطايا باسم الحب، لقد تغير كل شيء الآن شيلي.. ما كان سيكون لنا، لن يعود كما كان.. أنت غبية إن ظننت أننا قادران على العودة إلى الوراء.

أغمضت عينيها تعصرهما، والعجز يسحقها:

- أنت لا تعني ما تقول.

- بل أعنيه.. اخرجي من حياتي.

وقفت أمامه بطريقة ما باردة وكأن الحياة هجرتها. كان الألم واضحاً في عينيها.

- لا أريد أن أتركك فرانك.. أريد البقاء معك، أريد أن أبقى قربك وأن أحبك.

- ليس وأنا على هذه الحال.. من الأفضل أن نترك ما بيننا يموت.

ـ حاولت نسيانك فعجزت!

ـ مع الوقت ستنسيني!

كان صوته حازماً وهو يناور بكرسيه نحو الباب.

ـ لو فكرت ملياً لوجدت أنها الطريقة الفضلى! وسيأتي يوم تشكرينني فيه على موقفي هذا.

ردت، غاضبة من رفضه للمنطق:

ـ يا لك من محب لمصلحة الغير... وهذا ما يجعلك ضعيفاً..

رفع رأسه إلى الوراء بشيء من عجرفته القديمة، لكنه لم ينظر إليها: «أنا رجل متكبر لا رجل ضعيف».

ـ كبرياؤك هي ضعفك!

لم يظهر دليلاً على أنه سمعها. كانت حركاته مضطربة خرقاء ولكنه تمكن من فتح الباب والجلوس ببرود منتظراً خروجها. فسألت: «أليس هناك ما يمكنني قوله؟».

ـ عودي إلى ديارك شيلي. وابحثي هناك عن رجل آخر.

قالت بصوت مختنق: «قال تيرانس إن ردة فعلك ستكون هكذا ولكنني أملت أن يكون مخطئاً. ظننت أن حبي كافٍ».

لدى ذكر تيرانس ران للمرة الثانية توتر غير مفهوم وهذا ما حيرها، لكن قبل أن تقول شيئاً، تقدم تيرانس إلى الردهة برفقة آدم الأشيب الشعر، الضخم الجثة. ولكن فجأة تلاشت الابتسامة الصغيرة من فم تيرانس حين شاهد وجه شيلي الفاقد لونه، وقال بهدوء:

ـ ميلاد سعيد.. فرانك.

ازداد وجهه قسوة وبرودة، وتجاهل امتداد يد تيرانس وجلس يحدق إليه بدون أن يتفوه بكلمة للحظات طويلة محرجة.

هزَّ تيرانس كتفه، وشدَّ فكه قبل أن ينزل يده:

ـ هذا غريب. قالت لي ستيلا إن الحادثة أثرت في عمودك الفقري، ولم تقل إنها أثرت في ذراعيك.

رد فرانك من بين أسنانه: «ابتعد عن ستيلا».

رد تيرانس بعذوبة بعدما أصبح توتره دقيقاً:

ـ لن تتمكن ما دمت أسير هذا المقعد من إبعادي عنها.. وسأفعل ما يحلو لي.

عينا فرانك المشعتين بغضب قاتل أجفلتا تيرانس.

ـ ألم تكفك جولي؟

ـ لا تقل هذا!

كانت جملة بسيطة ولكنها مشبعة بتهديد ينذر بالشر.. ضاقت عينا تيرانس، وكان صوته هادئاً خطيراً عكس وقفته المتحدية المحاربة. بدا هادئاً بشكل غير طبيعي، قبضتاه مشدودتان إلى جنبيه وقدماه متباعدتان وثابتتان، وكأنه يُعد نفسه للقتال... ولو قرر فجأة أن يثب على فرانك، لما أدهش فعله هذا شيلي أبداً.

جلس فرانك متشنجاً وعروق عنقه بارزة إلى الامام، ونظرة كراهية وإجرام تلوي شفتيه. كان الجو بين الرجلين مشحوناً. نظرت شيلي بيأس إلى آدم الذي كان يتململ في الخلف.

أمسك آدم بمزهرية كبيرة من الخزف ورماها إلى الأرض فتحطمت ولكنه قال بدون انفعال:

ـ يا لي من أخرق سيدي... سأبعدك عن هذا المكان لأنظف النثرات المنتشرة في كل مكان.

ـ لا بأس آدم. أوصل السيد بارنز إلى الباب.. فهو راحل.

ارتد تيرانس إلى الوراء، ثم مرر يده على وجهه المتوتر، ولم تمض لحظة حتى استطاع القول:

ـ وماذا عنك شيلي؟ أفهم أن النبيل العظيم لن يتجاوز واقع أنك لست من مستواه الاجتماعي.

حبست أنفاسها بحدة لأن هذه الفكرة لم تخطر لها على بال فحتى الآن لم يتباه فرانكلين بثرائه، بل لم تدرِ هي حتى الآن انه فعلاً يملك لقباً نبيلاً، لأنه لم يتصرف يوماً بطريقة مختلفة عن الآخرين. ولكن هل جعلها حبها له لا تلاحظ فيه ذلك.

رد فرانك ساخراً: «هذا صحيح. انظرا إلى ما حولكما، قولا لي إذا كان أحدكما ينتمي إلى مثل هذا الجو المحيط به».

كانت الردهة البيضاوية فخمة رائعة والرخام الأسود رائعاً ومتبايناً بشكل صارخ مع الجدران المطلية باللون العاجي..

كانت الاعمدة المرتفعة الأنيقة تدعم سقفاً منحوتاً مرتفعاً بجلال، يتدلى من منتصفه ثريا ضخمة من الكريستال وهناك طاولتان اثريتان.

تصورت نفسها بملابسها العادية، وتيرانس بملابس العمل فغاص قلبها. إن فرانكلين على حق.. ليس منهما من ينتمي إلى هذا المكان.

كان ما قاله الآن هو الأكثر تأثيراً في نفس شيلا، لقد قال لها مرة، إنهما من عالمين مختلفين وها هي تعرف الآن قصده بل تعرف أيضاً أنها لن تنتمي أبداً إلى عالمه، إلا في الأحلام.

اعتدلت في وقفتها، بشيء من الكبرياء، وأمسكت ذراع تيرانس، واقتادته بطريقة ما إلى الباب الضخم، بسمو رشيق وقور.. وكان آدم هناك، يمسك معطفيهما وعلى وجهه تعبير لطيف.

قال له تيرانس بهدوء، محاولاً تجاهل فرانك:

ـ هلا قلت لجينفر إنني اصطحبت شيلي إلى المنزل؟

ما زال فرانك هناك في مكانه لا يحرك ساكناً.

نظرت شيلي إلى الخلف مرة واحدة فقط وعيناها المصدومتان مليئتان بإذلال جريح لم تستطع إخفاءه. ثم ارتدت على عقبيها مبتعدة..

لقد انتهى الأمر..

عالمان مختلفان..

* * *

فراشة المحبة

٥ ـ الحريق

تلك الأمسية ظلت شيلي حتى وقت متأخر جالسة كالمسمرة في مكانها. نام نيل في غرفته في الطبقة العليا أما العمة جينفر فظلت في العزبة وكان الكتاب ملقى على ركبتي تيرانس الجالس قبالتها في مقعد مريح دافىء.

الصراحة جيدة مع بعض الناس، أما مع فرانك فعكس ذلك. لو استخدمت التملق أو التودد لاستجاب ربما لها ولكن المشكلة إنها لن تحصل على فرصة أخرى بعد الآن، وهي خير من يعرف ما يعانيه.

لقد تلقت كرامتها ضربة، ولكنها أدركت أنه قال الحقيقة، إذ ما كان زواجهما لينجح أبداً. تصورته يسير في منزله الجميل الذي لن تنتمي إليه أبداً. الأمر سخيف غير أنها في لحظة إغراء، تركت للحلم مجالاً.

انسلت منها تنهيدة صغيرة، فرفع تيرانس نظره إليها. والتوى فمه عطفاً:

ـ لا تفكري في كلماته فلم يكن يعني شيئاً مما قاله بل اتخذ تلك الكلمات ليبعدك عنه خشية أن تشفقي عليه.

تمتمت: «بل قصد أنه لورد ثري».

ـ وأنت السيدة التي تحبه.

ـ قال لي إنني سأتغلب على مشاعري وربما سأتمكن من ذلك الآن.

ـ أنت حمقاء إن تركت ثراءه يقف حائلاً بينكما.. فقبل الآن لم يشكل ثراؤه فرقاً يذكر.

ـ لكنني لم أكن أعرف. ظننته شخصاً عادياً، عليه أن يعمل ليعيل نفسه.

ـ إنه رجل عادي شيلي.. ألم تلاحظي أنه كان مستعداً للتمسك بأي شيء حتى يدفعك إلى تركه.. إنه لا يريد شفقتك. «لم ينجح في قوله بأن ستيلا زوجته، ووجد فجأة هذه الطريقة.. فلا تدعي ما قاله يؤثر فيك.

وقف بوحشية راكلاً قطعة حطب، مراقباً الشرر المتطاير.

ـ ليتك كنت صائدة الثروات التي ظننتك إياها، لأن ذلك أفضل من رؤيتك على هذه الحال.

ـ آه ليتني أستطيع فقط المساعدة، ولكنه مختلف اليوم عن ذي قبل بحيث لم أعرف كيف أصل إليه.. خلت أنني أعرفه جيداً أما الآن فقد تبين لي العكس تماماً.. كيف تمكنت من حب رجل لا أعرفه؟

قال بعزم جاف، وبلهجة عذبة:

ـ قد لا تستطيعين مساعدته، إنما إياك التوقف عن حبه.

ـ آه، تيرانس. ربما من المفترض بي ألا أحبه، ألا ترى هذا؟ ربما هذا سبب كل هذه العراقيل.

- تبدين وكأنك مؤمنة بالقضاء والقدر شيلي.. وأنا مؤمن به.. سنضطر للانتظار ورؤية ما يخبئه لنا القدر.

في منتصف كانون الثاني خطا القدر خطوته، وأخرج كل شيء من بين أيديهما.

كانت شيلي نائمة حين سمعت صوتاً بدا أشبه بنباح منخفض.. أهو الكلب بوبي؟ ثم حاولت الجلوس في سريرها الضيق لكنها لم تستطع رؤية شيء في الظلام الدامس. رمشت عينيها لأنها شعرت بوخز فيهما وفي أنفها ثم بدأت تسعل وتسعل قبل أن تدرك ماذا يجري.

دخان.. دخان كثيف عابق. أقفل ذعر مفاجىء عقلها وعطل عمله ولكنها لم تلبث أن استردت شتات وعيها وخرجت من الغرفة راكضة.

كانت الردهة في الخارج شديدة الحرارة عابقة بطبقات مخيفة من الدخان، فعادت إلى غرفتها التي تناولت منها إحدى كنزاتها لتجعلها كرة ولتضعها على فمها وأنفها قبل أن تعود إلى الردهة شاقَّة طريقها.. لم يكن هناك نار غير أنه حين وصلت إلى الدرج. وجدت جداراً من اللهب الأصفر، يتسلق بثبات نحوها. فحاولت أن تصيح:

- عمتي جينفر! تيرانس! استيقظا! إنها النار!

وخرج صوتها ويا للغرابة متحشرجاً.

وجدت نفسها أمام باب غرفة عمتها، تحاول فتحه. لكن المقبض انزلق في يدها، فأخذت تضربه حتى آلمتها راحتي يدها.. فسعلت بخشونة، ثم وجدت تيرانس إلى جانبها

فجأة.

- نيل! لقد حاولت إيقاظك أولاً ثم عمتي!

- اذهبي وأحضريه، وسأخرج عمتك.. احمليه إلى غرفتك.. سنضطر إلى الخروج من نافذتها، أسرعي!

لم يستيقظ نيل حين نادته، فاضطرت إلى هزّه بقوة وكان الدخان أكثف الآن. عندما دثرته بحرام دمعت عيناها من شدة الدخان، أما الكلب فكان راقداً بدون حراك أمام السرير فكادت تتعثر به، صاحت وهي تضم نيل الفاقد الوعي بين ذراعيها:

- سأعود إليك أيها الكلب المسكين.

وجدت في غرفتها تيرانس يخرج العمة الدائخة من النافذة يربطها بالشراشف المعقودة معاً. وكان يشهق:

- تمسكي جينفر.. بإمكانك الوصول. النافذة غير مرتفعة.

نظف الهواء النقي حنجرته من الدخان للحظات، وأكمل:

- شيلي. اقفلي الباب!

رمت ابنه بين ذراعيه:

- ليس بعد. علي حمل الكلب.

- ليس لدينا الوقت.

ولكنها لم تسمعه. بل شقت طريقها في الردهة التي ارتفعت فيها ألسنة اللهب، حاولت الوصول إلى الكلب الذي وجدته راقداً حيث تركته، فصاحت:

- هيا الآن، يا ولد.. لقد أنقذتنا جميعاً بنباحك.. فلا تستسلم الآن.

أنّ الكلب، وعادت إليه الحياة:

- يمكنك النجاة أيها المسكين.

حملته بين ذراعيها ولكنها راحت تسعل بشدة ومع ذلك شقت طريقها وسط الدخان الأسود المتلاطم كالموج.. لم تكن قادرة على رؤية طريقها، واضطرت إلى تنشق دخاناً كثيفاً، حتى أحست بأنها بدأت تشعر بالدوار.

وأخيراً وجدت نفسها أمام غرفتها، كان تيرانس قد أنزل نيل إلى الخارج، وكانت تسمع زئير النار المرعب خلفها.

لم تعرف كيف وجدت نفسها عند النافذة، وصاح تيرانس: «الآن شيلي!».

ووجدت نفسها تنزلق بدون وعي فوق الشراشف. يتبعها تيرانس الذي وضع على كتفيه الكلب..

ما كادوا يبتعدون إلى مسافة آمنة عن المنزل حتى شق هدوء الليل البارد الصامت هدير مرعب، وتداعى السقف الملتهب... وقفوا يشهقون وفي هذه اللحظة عاد نيل إلى وعيه، أما المنزل فلم يبق منه سوى الحجارة الخارجية.

وقفت شيلي إلى جانب عمتها في الظلام ترتجف من الخوف. كانوا جميعهم حفاة الأقدام مرتدين ثياب النوم، إلا تيرانس الذي كان يرتدي جينزه وبوطه.

سمعوا إطارات فوق حصى الطريق، فاستداروا مخدرين، ينظرون إلى جماعة من الجيران الذين وصلوا متأخرين عن

المساعدة، وتوقفت سيارة طويلة أنيقة خلف الجمع، وقبل أن تتوقف نهائياً، قفزت ستيلا منها... ورمت بنفسها بين ذراعي تيرانس تبكي بهستيريا:

- هل أنت بخير؟ آه.. تيرانس؟ فرانك لم يستطع النوم هذه الليلة، وشاهد الدخان من نافذته.. وأرسلني إلى هنا ليتأكد أن.. أنكم جميعاً.. أنك أنت...

أخذ يهدهدها بلطف بين ذراعيه القويتين:

- هس.. ستيلا.. كلنا سالمين.. هس.

ولكن دموعها شقت طريقاً بيضاء على صدره المليء بالسخام.

زحفت جينفر متأرجحة نحو ستيلا، وحاولت بشجاعة أن تمنع ارتجاف صوتها، وهي تقول:

- هل سيستقبلنا صاحب السعادة الليلة حتى نقرر ما سنفعل؟

والتفتت إلى الحضور، ثم خرّت أرضاً مغمياً عليها.

في خضم الارتباك الذي حصل لم تع شيلي أن فرانك يراقبها، وهي تساعد تيرانس في تهدئة روع عمتها، التي دفعتها نحو أريكة في غرفة الجلوس. وفيما كانت جاثية على ركبتها تأخذ كمادة باردة من آدم لمحته جالساً في كرسيه النقّال بهدوء.

لم تستطع لبرهة سوى النظر إليه، ثم ارتجفت، تعرف أنها غير قادرة على رمي نفسها بين ذراعيه، كما فعلت ستيلا مع تيرانس. فتحت ثغرها بدون أن تصدر صوتاً. واغرورقت

عيناها بتوسل أبكم.

لم يبد عليه ذلك الجو المهزوم. مع أنه بدا منزعجاً لعدم تمكنه من المشاركة في عملية الإنقاذ. لم يكن متعباً وكان شعره الأسود مقصوصاً وقصيراً. رأت في عينيه بريق ارتياح ملحوظ، قبل أن تهبط عليهما غلالة غير مرئية. لم يقل شيئاً بل رفع رأسه وراح يجيل نظرة عميقة على طول قدها الرشيق.

أرسلت تلك النظرة حرارة مفاجئة إلى وجهها وشعرت بالخزي والعار لأنها انتبهت إلى أنها لا ترتدي سوى غلالة نوم بيضاء.

كان تيرانس واقفاً قرب ستيلا التي التفت ذراعه حولها وكأنه يحميها. أما نيل فكان مستلقياً قربه مدثراً بحرام دافيء محتضناً كلبه المتعب.

قال فرانك بهدوء أخيراً:

ـ الطبيب بالمر في الطريق إلينا. ماذا أصاب جينفر؟

وكأنما شعرت العجوز بأن عليها أن تتحرك. فتأوهت، وحاولت الجلوس ولكن موجة من الدوار أصابتها ثانية فعادت إلى الاستلقاء، فوق وسائد الاريكة الزرقاء.

ضغطت شيلي الكمادة الباردة على رأس عمتها: «عمتي جينفر».

ـ ليست المشكلة في رأسي. بل أعتقد أنني كسرت كتفي. لا تستطيع من هي في مثل سني تسلق النوافذ.

قال فرانك بخشونة غريبة مفاجئة:

ـ أحمد الله لأنك كسرت كتفك فقط جينفر. أنتم جميعاً

محظوظين. كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير.

ثم التفت إلى ستيلا صائحاً:

ـ ألن تعدي لهم الغرف؟ لا شك في أنهم يريدون وضع الصبي في السرير والخلود إلى الفراش طلباً لبعض الراحة.

أدار كرسيه نحو الباب، وأشار إلى آدم بتوتر أن يبقى حيث هو، وقال آمراً:

ـ أدخل الطبيب ليعاين جينفر حالما يصل.

تلك الليلة، لم تستطع شيلي الراحة، حتى بعدما احتست الحليب الساخن الذي حمله آدم، قائلاً إن صاحب السعادة يصرّ على أن تشربه، وينتظر إعادة الكوب الفارغ إليه. لم يكن التفكير في النار هو ما يقلقها أو يحرجها.

كانت خطواتها متشنجة وقدماها حافيتين وكانت تسير في الغرفة الفخمة الأنيقة وهي مرتدية روباً كحلياً حريرياً ليس لها، ألقت نظرة إلى الجدران المغطاة بالحرير الدمشقي العاجي اللون، وإلى الأثاث الفرنسي الأنيق، وإلى الستائر الذهبية البراقة. حينما غاصت في السرير المدثر بغطاء حريري عاجي، دفنت رأسها ووجهها بين يديها، شاعرة بأنها أصغر وأصغر بمرور كل ثانية. فما هذا المكان المناسب لها أبداً.

في الصباح التالي، جلست وحدها وقت الفطور في غرفة الطعام تحدق أمامها بعينين فارغتين.

دخلت العمة جينفر ذراعها مضمدة بضمادة من البلاستر، وجلست إلى جانب ابنة أخيها.

ـ صباح الخير عزيزتي. يا لمنظر ذراعي الغريب!

ـ أتؤلمك كثيراً؟

وضعت يدها السليمة على رأسها:

ـ أبداً.. غير أن الحبوب التي وصفها الطبيب أثرت في فكل ما يحيط بي يدور حولي وأحس أنني أريد أن أضحك بتهور.

ارتفع حاجبا شيلي دهشة، وتابعت العمة:

ـ وهذا ما أدعوه غباء كامل.. فليس هناك ما هو مضحك، حقاً.. فقد خسرت منزلي.. ذهب تيرانس باكراً ليتفقد الاضرار وعاد يخبرني بأن كل شيء قد تدمر. وها أنا الآن أوشك أن أفقد عملي كمدبرة منزل هنا.

ـ لماذا؟

دخلت ستيلا وهي تدفع كرسي فرانك أمامها، وتركته ليتخذ مكاناً له أمام الطاولة ثم قالت:

ـ وهذا ما نود أن نعرفه كذلك؟

ـ لن أكون نافعة ما دامت ذراعي على هذه الحال. يقول الطبيب إن الجبيرة ستبقى ستة أسابيع أو أكثر، وهذا يعني أن عليكم استخدام مدبرة منزل أخرى.

ردت ستيلا: «لا».

لكن شيلي قاطعتها، باستحياء مفاجىء، وهي تعلم أن فرانك يراقبها، مما جعل صوتها أعلى وأكثر توتراً من العادة:

ـ لا تقلقي عمتي.. أنا واثقة أن أبي وأمي، سيرحبان بك عندنا، ولقد مضى زمن طويل منذ أن رأيت أفراد العائلة.. وستعجبك كاليفورنيا في مثل هذا الوقت من السنة.

التفتت ستيلا إليها:

ـ لا! لا يمكنك إبعاد جينفر عنا.. نحن بحاجة إليها وإليك، فرانك اطلب منهما عدم الرحيل.

نظر الجميع إليه وهو جالس بجمود. كان يرتدي قميصاً أزرق شاحباً، مفتوح الياقة، وسروالاً كحلياً وكانت يداه تستريحان قليلاً على ذراعي مقعده.

ـ لا أستطيع منعهما من الرحيل إذا أرادتاه.

تكورت قبضتا ستيلا إلى جانبيها غضباً: «فرانك».

أشاحت شيلي وجهها عن قسمات وجهه المشدودة بتجهم ورفعت ذقنها عمداً. ماذا توقعت منه غير هذا الرد؟ أتوقعت منه الترحيب بذراعين مفتوحتين؟

قالت العمة بحزم تحاول إخفاء خيبة أملها:

ـ سيادته على حق عزيزتي.. أظن أن علينا التوقف عن فرض أنفسنا على عزلته وخصوصياته كما علينا البحث حالاً عن مكان آخر نقيم فيه.. فلا فائدة من تأخير المحتوم..

استدارت إلى فرانك: «هلا سمحت لي بالاتصال بمزرعة كولدريدج لأرى ما إذا كانت إيلاري قادرة على المجيء إلى هنا والعناية بك».

صاحت ستيلا:

ـ كولدريدج؟ أليست ايلاري كولدريدج هي المرأة التي التقيتها وقت عيد الميلاد؟ أم أولئك البنات؟

عبست جينفر: «إنهن أربع فتيات جميلات».

ردت ستيلا بمرارة:

- ولكل منهن موهبة وجمالاً.

حارت جينفر: «وما شأن ذلك بالأمر؟ إنهن يساعدنها كثيراً».

جلست ستيلا محبطة فوق كرسي:

- ألا تذكرين..؟ إن جاءت ايلاري إلى هنا للمساعدة فستجلب معها بناتها وعندها سيظهرن لتيرانس إنجازاتهن الرائعة، وهذا ما سيجعله بعيد المنال أكثر مما مضى.

قالت جينفر بهدوء: «لا أرى كيف سيتم ذلك، فقد قرر رؤية السيد كولدريدج هذا الصباح ليسأله إذا كان يستطيع الإقامة عندهم مع نيل على أن يرعى مواشيهم حتى يستطيع تقرير ما يستطيع القيام به بالنسبة للمنزل».

بدا الرعب على ستيلا:

- ماذا؟ لا يمكنه هذا! لا يمكنه الإقامة هناك! لدينا عدد كافٍ من الغرف.. فرانك! قل شيئاً حباً بالله!

بدا مرتاحاً في مقعده وعلى محياه بعض الضجر.

- ليس هناك ما أستطيع فعله.

- بل تستطيع.

قالت كلماتها وهي تواجهه ببرود.

- سيبقى هنا إن طلبت منه ذلك.

قابل تحديها بصمت متوتر، وأكملت بصوت بارد:

- بإمكانهم جميعاً البقاء.. سأعتني بنيل، وستنوب شيلي عن جينفر في الوقت الحاضر.. ثم لماذا هذه العقد كلها، إنهم من العائلة تقريباً.

ظلَّ فرانك صامتاً وعيناه تحترقان فجأة.. بعد لحظات تابعت:

- إن لم تطلب منهم البقاء فرانك فلن أكلمك بعد الآن. سأصبح في الخامسة والعشرين بعد ثلاثة أسابيع وعندها أنتهي من مسألة الوصاية وسأقرر ساعتئذ الرحيل عن هذا المكان.

ساد صمت مطبق لم يكن يُسمع فيه سوى دوي ساعة في الردهة الخارجية، ونباح كلب بعيد.

أخيراً أطلق فرانك نفساً كان يكتمه.. واعتلت وجهه نظرة مبهمة في عينيه.

- أعتقد أن هذا أمر حتمي.. حسناً جينفر؟ سمعت ما قالته.. فما رأيك؟

- لا أدري ما أقول! لكنني واثقة أن في الأمر أكثر من مسألة دعوتنا للإقامة في منزلك.. ربما السبب هو العلاج الذي أتلقاه، أو ربما مخيلتي، لكنني متأكدة أن الجو هنا ثقيل جداً. أتريد حقاً أن أبقى سيدي؟

اشتد ضغطه على فكه وهو ينظر إلى ستيلا... لكنها لم تتحرك.. فقال بهدوء: «أطلب منك البقاء جينفر».

- أرغب في البقاء، لكنني لا أريد أن أكون مصدر إزعاج.

رد بصراحة: «لن تكوني مصدر إزعاج أبداً».

عندما رفع رأسه ونظر إلى شيلي، لم يستطع منع قبضتيه من الانكماش. راح ينظر إليها بصمت مدة بدت لها أبدية ولكنها في هذه اللحظة لم تستطع قراءة ما على وجهه، ثم قال

بيرود:

- وأنت؟ هل تبقين.. للعمل مدبرة منزل حتى تشفى كتف عمتك؟

عضت على شفتها، تتصور الإرباك الذي ستواجهه إن قبلت، والصمت المتوتر والطريقة التي سيستخدمها ليتجنبها. إنه لا يريدها هنا.. فتصرفاته جميعها تنبيء بالرفض.

أرسلت ستيلا نحوها نظرة مدمرة لأنها لم ترد فوراً وقالت بإصرار:

- طبعاً ستبقى! هيا شيلي.. سأريك المطبخ لتعدي الفطور.. اجلسي جينفر فنحن سنعتني بك في الفترة المقبلة.

أمسكت ذراع شيلي بخشونة، متجاهلة احتجاجها الصامت ودفعتها بغير لطف إلى خارج الغرفة.. ثم قالت حين وصلنا إلى المطبخ.

- ماذا دهاك؟ إنها الفرصة التي انتظرناها طويلاً. بإمكانك الآن العيش في المنزل نفسه معه.

- إنه لا يريدني هنا ستيلا.

رفعت ستيلا رأسها بنفاد صبر: ولكنك تحبينه.

- قال إن الحب لا يعني شيئاً.. وربما هو على حق.. لا يمكنني البقاء هنا. لماذا وجهت له هذا الانذار؟

- هل جننت؟ ظننتك تريدين مساعدته؟

ارتدت شيلي عنها، تتلاعب بشفتها بين أسنانها: «إنه يرفض مساعدتي».

- هذا ما قاله، ولكن ألا ترين كم تغيّر؟ فمنذ شاهدك تغيرت تصرفاته وانظري إلى مظهره! لقد قصّ شعره، ولم يعد محبطاً.

ضربت الارض بقدمها ثم صاحت:

- أنت لا تصغين إلى ما أقول. ألا تهتمين لأمره؟

- لا أدري ما هو شعوري ولكن تدركين الهوة التي تفصل أحدنا عن الآخر.

مدت ذراعيها، تنظر إلى الروب الحريري الأزرق الذي ترتديه، والذي كان ملفوفاً مرتين حولها:

- أليس هذا لفرانك؟

هزت ستيلا نظرها، فاشتعلت عينا شيلي بنار خضراء:

- أنا لم أرتدِ الحرير من قبل، ولم أنم في غرفة مهيبة كالتي نمت فيها ليلة أمس. انظري إلى المكان كله، ستيلا.. وانظري إليّ. أنا لا أنتمي إليه. لقد أكلت النار ملابسي ولم يبق لي شيء منها. وماذا أفعل في حفلة عشاء ارستقراطية؟ سأبدو خرقاء لأنني لن أعرف أية شوكة أستخدم كما لن أتمكن من لعب دور «سيدة العزبة».

- ولكنك وافقت على الزواج به يوماً!

- حدث ذلك قبل أن أعرف أنه غني.

قالت ستيلا ساخرة:

- أرى الآن أنك تليقين بفرانك وهو يليق بك أتعرفين ما مشكلتكما؟ إنها الكرامة الفارغة، فرانك لا يريد شفقتك.. وأنت لا تريدين إحسانه.. يا إلهي! ألا تتغلب حاجته على

كبرياتك؟

أحست شيلي بخواء في داخلها.. فهي وفرانك أمام طريق مسدود.

تنهدت مستسلمة تسأل:

- ماذا تحضر عمتي للفطور عادة.. ليت هذه الأسابيع الستة تمضي بسرعة.

* * *

٦ ـ الحب الذي كان

لم تكن شيلي موجودة حين طلب فرانك من تيرانس البقاء ولكن يبدو أنهما توصلا إلى اتفاق ما، لأن ستيلا لم تستطع إخفاء ابتسامتها حين جلس الجميع إلى العشاء ذلك المساء.

كانت غرفة الطعام الكبيرة الرسمية من نصيب ستيلا التي أصرت على مساعدة شيلي في اليومين الأولين.. وضعت على المائدة غطاء حريرياً أبيض، وأواني فضية براقة، وزينت وسطها بشموع بيضاء.

كان تيرانس يجلس هادئاً، مرتدياً إحدى سترات فرانك السوداء الرائعة التفصيل، وقميصاً حريرياً أبيض.. وضعت ستيلا كرسيها عن عمد إلى جانبه، وكان نيل مسروراً لأنه سمح له بالجلوس معهم.

ضحكت ستيلا: «أليست جلسة حميمة؟ إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بأنني من عائلة حقيقية.. ليت آدم وهال يغيران رأيهما ويشاركاننا طعامنا».

دخلت شيلي وهي تحمل قصعة كبيرة من البطاطا

المحمَرة وضعتها بحركة متوترة على المائدة قرب فرانك...

سألت: «هل.. نسيت شيئاً؟».

رد باختصار: «لا، لدينا هنا ما يكفي جيشاً».

كان يجلس على كرسي من السنديان الثقيل على رأس المائدة، عندما نظرت إليه شعرت بأن من المستحيل تصوره عاجزاً عن الوقوف والسير بتلك الرشاقة الفريدة والوقار اللذين كانا جزءاً لا يتجزأ منه.. أكمل بصوت ساخر:

ـ إنها ليست مناسبة رسمية شيلي... فكما قالت ستيلا إننا الآن عائلة كبيرة سعيدة ونحن بانتظارك حتى نبدأ العشاء.

لم تستشر ستيلا شيلي حين رتبت المقاعد، واحمرّ وجه شيلي لأنها أدركت أن المكان الوحيد المتبقي لها هو في أسفل المائدة.. غاص قلبها حين نظرت إلى وجه ستيلا المعتدة بنفسها.. ولكنها لم تجد أمامها إلا الجلوس في ذاك المكان.

لم يعلق أحد بكلمة. كانوا جميعهم بمن فيهم نيل صامتين وطال الصمت كانت شيلي خلاله تتلاعب بطعامها متوترة وشعرت بالحرارة تجتاحها.. ماذا أفعل هنا؟ ماذا لو أوقعت شيئاً على مفرش المائدة؟ أو على حجري؟

اشتدت قبضتها على شوكتها وحين رفعت رأسها رأت أن فرانك يراقبها وعلى وجهه تقطيبة حادة فخفق قلبها بسرعة وبدا لها أن فرانك يتوقع شيئاً ولكن ما هو؟

قالت متلعثمة: «أنا لم أشكرك على الثياب التي جعلت ستيلا تشتريها لنا بعد ظهر اليوم... سيدي».

كاد تيرانس يختنق بالطعام، ونظرت ستيلا إليها

مشدوهة. أما فرانك فابيض وجهه:

ـ لا تشكريني على هذا.

قاطعتهم جينفر وهي لا تفهم ما يجري:

ـ آه.. بلى.. شكراً جزيلاً لك. أنا لم أحصل على فستان رائع كهذا منذ أجيال... وفستان ابنة أخي جميل رائع.. الأخضر الزمردي هو لونها المفضل...

قال بتوتر: «اختارت ستيلا الملابس والشكر يجب أن يعود إليها. لو كان الأمر عائد إليّ لأبقيت شيلي في روبي الحريري الأزرق، لم يبدُ يوماً بهذا الجمال عليّ».

افترّ ثغر جينفر نهمّ بالكلام ثانية، ثم لاحظت الاحمرار المتسلل إلى وجه شيلي.

حاولت شيلي أن تجمع شجاعتها المبعثرة، وقالت وهي تكاد تختنق:

ـ لا مجال للشك في ذوق ستيلا، ولكن المال مالك، عندما يعود كل شيء إلى طبيعته سنسدد لك ما أنفقته علينا.

وضع فرانك سكينه وشوكته من يده وشد قبضتيه، مكافحاً غضبه.

ـ إن رغبت حسمت المبلغ من راتبك لأنني سأدفع راتباً كما تعلمين.

هزت رأسها، توافق بسرور: «إن شئت ذلك».

لكنها عرفت أن من المستحسن تغيير دفة الموضوع.

ـ هل تذوقت اللوبياء الخضراء.. سيدي؟ عرفت أنها من مزروعات حديقتك.

كانت ابتسامتها بريئة وهي تمرر له القصعة، بدا على وشك أن يقول لها أن تفعل ما تشاء باللوبياء الخضراء ولكنه عدل.

ظل الصمت يحيط بالجلسة المملة التي لم يقطعها سوى بعض الأحاديث المتقطعة، وحين أنهوا القهوة أخيراً، تسللت شيلي ممتنة إلى المطبخ، حيث تهاوت بارتياح.. إن كانت الوجبات ستستمر على هذا المنوال، فستواجه نوبات طويلة من عسر الهضم.. أطالت فترة غسل الصحون حتى أصبح من الواضح أنها تستخدم هذه المهمة لتجنب الجميع. جففت يديها وخلعت مبدعة العمة جينفر، ثم راحت تجيل البصر في المطبخ لتتأكد من عدم نسيان شيء ثم تسمّرت في مكانها كالأموات.

كان فرانك جالساً في كرسيه ذي العجلات يراقبها، ومن خلال تصرفاته عرفت أنه كان هنا منذ مدة.

فقالت بصوت متوتر: «أتريد شيئاً سيدي؟».

تطاير الغضب من عينيه: «لماذا شيلي؟ لماذا الرسميات؟».

اجتاحت وجنتيها موجة من الاحمرار فقال بإلحاح:

- أجيبي!

- أنا لست سوى خادمتك. أليس المفروض بالخادمة مناداة المخدوم بسيدي؟ دليل احترام؟

ضاقت عيناه الفضيتان: «لست خادمتي».

- طلبت مني البقاء على هذا الأساس.

- أظن أنني رغبت في ذلك.

- لا.. أعرف أنك لا ترغب. ولكنك أجبرت على ذلك، وأنا لم أرغب في البقاء كذلك. فلقد أوضحت لي أنني لا أنتمي إلى هذا المكان.. فلا تقلق. أعرف أن هذه الأسابيع الستة لن تمر بسهولة ولكنني سأخرج من حياتك إلى الأبد بعد هذه المدة.

قرّب كرسيه منها بارتباك ووجدت أنها لا تستطيع إلا الوقوف جامدة:

- لم أكن أقصد هذا!

بدت على وجهه موجات ألم وعندما وصل إليها، امتدت يده الناضحة عرقاً إلى معصمها بقوة هائلة:

- لن أسمح لك بالتذلل!

رفعت رأسها كبرياء، وعضت على شفتها لتمنع نفسها من الصراخ بسبب ضغطه المؤلم على عظامها.

- لم أكن أتذلل حين شكرتك على الملابس التي اشتريتها لنا بل حاولت أن أفعل ذلك بوقار.. وفي الفترة القادمة سأقوم بعملي بإخلاص.

- لا أريد أن تكوني مدبرة منزلي.

- إن كنت لا أرضيك..

جعلت صيحة استهجانه الكلمات تموت على شفتيها، وشدها من معصمها ليركعها على ركبتيها أمامه..

- أنت تتعمدين إساءة فهمي شيلي.. أنت ند لي. أرفض أن أنظر إليك على أنك خادمة ذليلة تناديني يا سيدي..

وعليك نسيان لقبي.

همست وهي تكاد تجهش بالبكاء «علي ألا أنسى».

أخذت عيناه تتطايران شرراً، وارتفع لهيب غضب إليهما.

ـ لن أتحمل!

رفعت نظرها إليه، وامتلأت نفسها بالبؤس.. ما تزال مشاعرها على الرغم من مقامه الرفيع على حالها. إنها تحبه الآن أكثر مما مضى.. إنما عليها أن تضع حداً لهذا كله..

قالت ببرود:

ـ أنا لا أفعل هذا من أجلك. عمتي بحاجة إلى هذه الوظيفة الآن، بعدما خسرت كل ما تملك. سأحل محلها حتى تعود إليها قوتها وحالما تصبح بصحة جيدة، أغادر المكان، أما الآن فسأسعى جهدي للابتعاد عن طريقك.. بل لن تعرف أنني موجودة.

صاح محبط النفس: «اللعنة شيلي».

اشتدت قبضتاه على كتفيها ثم جرها لتقترب من وجهه فتشابكت عيونهما وظل ينظر إليها بحدة، والصمت الثقيل يلقي بظله عليهما، ولكن شوقاً شديداً اجتاح وجهه، وجعل معدتها تتقلص، ثم تأوه بعجز قبل أن يضمها إليه بتملك شديد.

ما إن التقى جسماهما حتى تهاوى دفاع كبريائها.. تمسكت به يائسة محاولة الخلاص منه، ولكن ذراعيه اشتدتا على ظهرها، لتطويا بسهولة قدها الرشيق.

كان عناقه حاراً، مقنعاً بحيث محا كل رغبة عندها في

المقاومة.. ثم ضاعت.. وتاهت بين ذراعيه ناسية كل شيء إلا وجودهما في أحضان بعضهما بعضاً.

شنت تجاوبها المتنجر آخر بقايا الكبرياء القائمة بينهما فمالت إليه أكثر ثم أمسكت كتفيه لتحافظ على توازنها. انسلت أصابعها إلى شعره الكث الحريري الذي تحب ملمسه وقوته وتسربت آهة عميقة من حلقها: فرانك.. فرانك..

كيف لها أن تفكر في تركه؟ إنه هنا.. إنه لها.. في لحظات مجنونة شعرت بأن كلاً منهما ينتمي إلى الآخر فلم يعد هو صاحب السيادة ولم تعد هي خادمته.. لم يكن عاجزاً بل كان هو رجلاً وهي امرأة تشاركه المشاعر التي تذهب إلى أبعد من روابط الزمن والمكان.. إنه فرانكلين هايز الذي تحبه إلى حد الدمار.

أبعدها عنه بكل لطف ورقة، مراقباً الأهداب المرتعشة وهي ترتفع، لتبدو تحتها عينان ظامئتان إليه. ابتسم لها، وتابع تفرسه في وجهها قبل أن يطلق تنهيدة محطمة، وتمتم بصوت خفيض:

ـ طالما كنا هكذا.. أتذكرين؟ لا مسافات بيننا، لا حواجز ثراء أو كبرياء، أو طبقة.. كنا فقط رجلاً وامرأة يجمعهما الحب.

نظرت إلى ابتسامته البرّاقة. فعاد بها الزمن فجأة إلى الشاطىء الممطر في كاليفورنيا.. يومذاك كان يملأ عليها عالمها. بطوله وقوته وحبه للحياة، كان ساحراً، مذهلاً، عذباً حديثه، رائعة كلماته، وكان يريدها.

تمتمت بصوت أجش تنظر مباشرة إلى عينيه: «أجل أذكر».

همس ووجهه يتحرك مداعباً شعرها: «هل أحببتني يومذاك؟».

ارتجفت: «لم أكف عن حبك قط فرانك».

غمرت قلبها رنة صوته وقوة لمسانه، ودفء عطره الرجولي، وتعلقت به بجنون وجسمها يذوب على جسمه القوي الرشيق، ثم أخذ اسمها يخرج منه توسلاً:

ـ شيلي.. شيلي!

ردت عليه: «نعم!».

ـ كم من الأوقات جلست ليلاً، أتذكر.. كان لديك دائماً ما تقدمينه بسخاء.. يا إلهي شيلي!

دفن رأسه في عنقها، وأحست به يرتجف ولم يلبث أن رفع رأسه ينظر إليها ويداه مطبقتان على ذراعيها ثم قال بصوت مرتجف:

ـ هذا هو الجنون بعينه! فنحن لا نستطيع الرجوع إلى الماضي.

بكى شيء ما في داخلها. بكى بسبب النظرة اليائسة المطلة من عينيه ولكنها في أعماقها عرفت أنه على حق. تلاقت عيونهما للحظة فعرفا أن هذا الحب ميؤوس منه. هذه لحظة تقارب غريبة، لا تحتاج إلى كلمات.. ثم تشتتت نظرات عينيه وأصبحت خالية من التعبير.

ـ أحبك فرانك.. لا يهم إلى أين أذهب أو ما أفعل..

تذكر هذا جيداً.

رد بجفاء: «لا فائدة».

رفعت ذقنها، ورفرفت عينيها لتمنع الدموع من السقوط:

ـ أعرف أن زواجنا ما كان لينجح، ولكنني لم أستطع التوقف عن حبك.

اجتمع الاذلال والألم، والغضب في آن واحد، ولكنها وقفت متشنجة ثابتة الظهر بكبرياء ثم ما هي إلا لحظة حتى رأت الكرسي المتحرك يخرج من الباب.

استقرت أيامها في رتابة وعادت حياتها إلى رزانتها.. كان فرانك كلما رآها وقت الطعام، يتصرف بأدب معها ثم يبتعد عنها وكانت تبادله هي بالمثل.. أدهشها أن تجد أن إدارة هذا المنزل الضخم تشبه إدارة منزل عمتها الصغير.

قالت لها جينفر في إحدى الأمسيات:

ـ العمل في الواقع هو نفسه. إن دخلت إلى غرفة لا تتركي ضخامتها تخيفك.. بل اجتازيها خطوة خطوة حتى تنجزي العمل.

جففت شيلي يديها من غسل الصحون، وابتسمت متعبة.. صبت فنجان قهوة لها ولعمتها قبل الجلوس إلى مائدة المطبخ.

ـ امتعضت في البدء من فر.. أعني من سيادته خاصة وأنا أراه يعيد توظيف كل من طرده من العمل.. ظننته يعتقد أنني غير قادرة على القيام بعملي.. لكنني الآن ممتنة للمساعدة.

ـ قلت لك إنه عمل ضخم عزيزتي.. قبل أن نسكن هذا

المنزل كانت معظم غرفه مقفلة ونادراً ما كان يخرج سيادته من مكتبه.. أما الغبار فكان في كل مكان ولم يكن يلاحظ حتى.

ـ أما الآن فهو يلاحظ كل شيء! ولقد شاهدت وجهك حين ضبطته يراقبني.

نظرت إليها جينفر مفكرة قبل أن تطوي ابتسامة صغيرة أطراف ثغرها.

ـ كنت عمياء لأنني لم ألاحظ طريقته في النظر إليك، ولكنني واثقة أنه لا يراقب كل شيء بسبب قيامك بإدارة المنزل بل لأنك فتاة جميلة. ويبدو أنه منجذب إليك بطريقة ما.. ثم الملاحظة التي قال فيها إنه يحب رؤيتك في روبه الأزرق.. أتظنين أن سبب ذلك عقدة العجز التي تجمعكما؟

صاحت شيلي: «كيف يمكن ذلك؟ وعدتني ألا تخبري شيئاً عن إصابتي».

ـ ولم أقل شيئاً عزيزتي.. غير أنني لا أدري سبب عزمك على كتمانها. لقد تغلبت على الألم.. كدت تخسرين ساقك، لكنك انتصرت.. والآن يمكنك أن تكوني مصدر الهام له.. خاصة الآن.

ـ الآن؟

ـ قال آدم إن سيادته قابل الطبيب اليوم.

ـ لماذا؟ هل أصابه مكروه؟ هل هو بخير؟

ارتشفت جينفر قهوتها ببطء، أما شيلي فقاومت لتسيطر على توترها وخفقان قلبها ثم فجأة ومض بريق ما في عيني جينفر، وكان الدليل الوحيد على أنها ترى تصرف شيلي

غريباً.

ـ يبدو أنه يحس بالألم مجدداً لكنه يرفض أن يصحبه آدم إلى الطبيب.. بعد ظهر اليوم جاء الطبيب ليراني، فطلب منه آدم أن يلقي نظرة على سيادته أيضاً.

ـ و..؟

ـ يقول الطبيب إن ازدياد الألم دليل خير.. إنه جزء من عملية الشفاء.. كما يقول.. هل فهمت الآن؟ بإمكانك مساعدته كثيراً.

ـ كيف؟

ـ قال آدم إن الطبيب اقترح علاجاً فيزيائياً، ورفض سيادته التفكير في الأمر.

ـ لكن لماذا يرفض ما دام في العلاج شفاؤه.

ـ لا أدري في ما يفكر.. أراه تعساً مؤخراً. لو أخبرته عن السنين التي قضيتها في العلاج الفيزيائي لربما أصغى إليك.

ـ هل كان الطبيب متأكداً؟ بشأن العلاج أعني؟

ـ رأيته عازماً، مصمماً فقد استدعى آدم إلى الغرفة وعلمه عدة تمارين خفيفة كبداية.. ولكنك لا تعرفين مدى عناد الرجل، رفض، ورفض، ورفض.

عضت شيلي على شفتها، وقالت مرتجفة: «كأنه لا يريد أن يسير مرة أخرى».

قطبت جينفر حاجبيها: «هذا ما اعتقدته أنا أيضاً وعندما سألت آدم عن ذلك أجابني أن سيادته اكتفى من بعثرة آماله،

ولن يجرب أي علاج لئلا يخيب ظنه من جديد».

اسودت عينا شيلي: «هذا أمر سخيف. عليه على الأقل المحاولة».

ـ أراهن أن للأمر علاقة بتلك الفتاة التي كان سيتزوجها.. أتذكرين، أخبرتك عنها عندما وصلت إلى المنطقة؟ لا أظنه تمكن أبداً من التغلب على حبها، وربما يخاف أن ترفضه ثانية حتى وإن قدر على المشي. وربما رحلت وتزوجت شخصاً آخر وتخلى عن الأمل.. قد تكونين الفتاة المناسبة لإبعاد تفكيره عنها.. فلماذا لا تحاولين عزيزتي؟

سقطت دمعتان حارتان على وجنتيها فنظرت جينفر إليها بحيرة.

ـ آه عمتي جينفر! أنا لم أرفضه قط! لم يخبرني بما أصابه. ولو عرفت لبقيت معه ولحاولت مساعدته ولكنه بدل أن يخبرني الحقيقة ادعى أنه متزوج ليمنعني من رؤيته خشية أن أشفق عليه.

سقط فك جينفر، وفغرت فاها: «هل أنت...».

ـ أجل.. أنا الفتاة التي كان سيتزوجها السنة الماضية، لكنه ألغى الزواج بدون أن يخبرني السبب.. لم أعرف أنه مصاب كما لم أعرف أنه لورد ثري. قصدتك لأحاول نسيانه.. ويا لسخرية القدر! انظري إليّ، لقد انتهى بي الأمر في منزله!

ـ لماذا.. لماذا.. شككت أن بينكما شيئاً، لكنني لم

أفكر قط...

مسحت شيلي دموعها بنفاد صبر: «انتهى كل شيء بيننا، أنا لا أنتمي إلى هذا المنزل».

ـ بل أنت تنتمين إليه كل الانتماء! أتذكرين أحلامك في الطفولة؟ وحبك له!

ـ لا شأن لهذا بما جرى.

ـ بل له شأن كبير.. فالحب يفرض التزاماته الخاصة.. وكلما كان حبك أكبر، كلما كبرت التزاماتك.. أنت مجبرة على مساعدته سواء أرغبت في ذلك أو أبيته. واعلمي أنك إن لم تفعلي، عشت في بؤسك لأنك ستشعرين بالذنب قائلة لنفسك ربما كنت قادرة على مساعدته. قد لا يرغب في الاصغاء إليك، ولكن أمامك واجباً وهذا الواجب يفرض عليك إقناعه بالعلاج.

واجب.. إنه لا يرغب في مساعدتها، وهي خائفة من عرض مساعدتها التي قد يرميها في وجهها.

لم تستطع التحدث إليه إلا بعد أسبوع من حديثها مع عمتها.

بعد ظهر أحد الأيام وأثناء استراحة قصيرة قبل بدء العشاء. تسللت إلى الخارج لتتمشى قليلاً. في هذا الوقت تساقطت رقع الثلج بهدوء وكان السير متعباً ولكنها دفعت نفسها لتجتاز المسافة القصيرة بين العزبة وبين منزل عمتها المحترق وهناك جلست تفكر في واجبها نحوه.

بدأت تهب الريح وأخذ الثلج يصفع وجهها ومع ذلك

بقيت حيث هي وعيناها هائمتان في الحقول المنبسطة.

دست شيلي أصابع قدميها في حفنة ثلج، وتنهدت بيؤس. أنا الوحيدة التي لا اتجاه محدد لديها، أطوف وأطوف بانتظار حدوث شيء ما بدلاً من تولي أمور حياتي بيدي.. سأعود إلى كاليفورنيا وهناك سأجد وظيفة جيدة، ثم سأراسل عمتي وأنتظر بفارغ الصبر أن ترد، آملة أن تخبرني شيئاً عن صاحب السيادة.. ما هي إلا أسابيع قصيرة حتى أرحل..

- شيلي؟

كانت أفكارها بعيدة بعيدة فسحبت نفسها منها.

- آه.. مرحباً تيرانس.

- ماذا تحاولين أن تفعلي؟ أن تصابي بالتهاب رئوي؟

ابتسمت بخجل: «أبداً. فأنا أرتدي ثياباً سميكة أترى؟».

مدت له ذراعيها.

كان معطفها من النايلون الأزرق المكسو بالصوف، وكان حذاؤها مداساً طويلاً يكاد يبلغ الركبتين وقد حُشر تحته الجينز.. فقال لها بهدوء:

- أنا مسرور لأنك توقفت عن القتال مع فرانك بشأن الملابس التي يشتريها لك. تبدين جميلة.

- إنني أسجل كل شيء فعندما أعود إلى موطني سأسدّد له كل سنت دفعه.

هز رأسه بدون أن يجادلها: «أرى أنك هنا منذ زمن طويل».

هبت واقفة على قدميها: «كم الساعة؟».

- الخامسة والنصف تقريباً.

تأوهت: «آه، لا تقل ذلك ستتساءل عمتي إلى أين ذهبت».

- انتظري قليلاً شيلي.

وضع الكيس في مكان ظليل نسبياً، ونفض الثلج ليجلس إلى جانبها.

- اجلسي، وتحدثي إليّ دقيقة.

جلست على مضض فقال بصوت عميق هادىء قبل أن ينفض الثلج عن قبعته:

- يبدو أننا لم نعد نتحدث. ما أسرع ما تمر الأيام وأنا لا أراك إلا مشغولة.

- لست مشغولة أكثر منك.

- ولكنك تحاولين التفرد بالعمل شيلي.. عندما أحتاج إلى مساعدة أطلبها ولا أتذمر.

- كثرة العمل تنسيني أشياء كثيرة.

- عليك الخروج.. زوري مع ستيلا الجيران..

تنهدت: «ولماذا أزور الناس ما دمت راحلة عما قريب؟».

- ستبقين حتى تشفى كتف جينفر.

هزت رأسها بعزم: «وعندئذ لن يحتاج إلي أحد كما أنه لا يمكنني البقاء حيث لا أنتمي».

نظر إليها لبرهة ثم قال بصوت أجش:

- أتعلمين شيلي أن بعض الناس يستخدمون المال سلاحاً

وآخرون يؤمنون أنه مجرد فخ. أما أنا فما كنت أعتقد أبداً أنه سيكون حجر العثرة في درب سعادتك وسعادة فرانك.

كانت عيناها الخضراوان تنظران بحدة إلى عينيه البراقتين:

- إنه فاحش الثراء يا تيرانس ولعل ثراءه هو ما يدق في نعش نفسي يوماً بعد يوم.

- إنما لن يكون ثراؤه عذراً لتركه. أتظنينه سعيداً بماله؟

- أجل. أؤمن أنه سعيد به فهو يفعل ما يريده.

- ولكنه مستعد لمقايضة ماله كله مقابل الوقوف على قدميه من جديد.

- لا.. لن يفعل هذا! عليه أن يقوم ببعض التمارين ولكنه يرفض القيام بها بل ولا يحاول حتى.. لقد استسلم!

قال بخشونة: «إذن ساعديه.. أنت الوحيدة القادرة على مساعدته، يجب أن تجبريه على رؤية المنطق».

- لا يريد مساعدتي.

- إنه يحتاجها. إن كنت تحبينه..

صاحت يائسة: «لا تقل ذلك أيضاً فما انفكت عمتي عن القول إن عليّ مساعدته ولكنه لن يقبل مني هذه المساعدة. وأنت ترى ذلك بأم عينيك! ألا تشاهده وقت العشاء؟ إنه يجلس هناك وأفكاره بعيدة ملايين الأميال. ولولاك ولولا ستيلا والعمة لما دار أقل حديث».

هز رأسه متجهماً: «أنت على حق ولكن عليك أن تفعلي ذلك بدون أن يشعر».

ابتسم ووقف نافضاً الثلج عن معطفه.

- أنتن النساء، تفعلنّ هذا طوال الوقت، وتجعلننا نظن أننا ننجز الأمور وحدنا. سأعتني بنيل الليلة. وأدفع ستيلا إلى اصطحاب فرانك إلى المكتبة الكبيرة عوضاً عن الذهاب إلى مكتبته الخاصة... دبري أمرك للذهاب إلى هناك وتحدثي إليه.

- لن يصغي إليّ!

- أشيلي نوريس من تتكلم؟

وضع يده تحت ذقنها والاهتمام يغضّن وجهه الوسيم.

- الوقت ينفد بسرعة. أعرف أنك تحبينه وأعرف أنك لن تسمحي للعناد والتكبر بالوقوف في طريق فرصته للسير مرة أخرى.

وقفت بصلابة: «ولماذا تظن أن الكبرياء هي السبب؟».

- أعرف فرانك.. امنحيه الفرصة.. فأنت الوحيدة القادرة على تقديم العون.

* * *

٧ ـ أحتاج إليك

لم تجد في المكتبة الكبيرة أحداً ذلك المساء.. ومع ذلك سوّت شيلي حزام تنورتها السوداء المخملية الطويلة، ودست ما ارتفع من أطراف بلوزتها المخرمة البيضاء تحته بيدين مرتجفتين.

تنهدت تنهيدة صغيرة ثم راحت تمرر أصابعها على عناوين الكتب المرصوصة على الرفوف الممتدة من الأرض حتى السقف..

أحبت شيلي هذه الغرفة أكثر من سواها لأنها كانت ترى فيها تلك السنوات الماضية، حين كانت تجوب في الخرائب مع أخوتها. الآن، هناك نار صغيرة متوهجة تحترق في الموقد الرخامية السوداء.. لم يُضأ أي مصباح بل كانت النار مصدر الضوء الوحيد في الغرفة..

كان كل شيء صامتاً حتى سمعت صوتاً، فتسللت إلى الظل بعيداً عن نور النار المشتعلة. ثم سمعت الصوت يردف قائلاً:

ـ لا أرى لماذا لا تقبلين برفضي.. ستيلا. ولا أفهم لماذا

تدفعينني للمجيء إلى هنا؟ عودي بي إلى مكتبتي.

تجاهلته ستيلا، ودفعت كرسيه إلى مركز ما أمام المدفأة، قبل أن تضيء عدة مصابيح قريبة منهما، وقالت:

ـ المكان أدفأ هنا، وأحس أنني قادرة على التقرب منك بشكل أفضل في هذه الغرفة ذلك أن جوها يجعلك سهل التعامل، وأنت لم تذكر سبباً مقنعاً لرفضك إقامة حفلة.

ـ ألا تدركين كم سيرهق العمل شيلي؟

ـ لقد استأجرت هؤلاء الخدم لمساعدتها وهي غير مضطرة للقيام بكل شيء بنفسها.

أرخى ربطة عنقه، وفتح زرين من قميصه، قبل أن يمرر اصبعه في ياقته:

ـ دعي الأمر ستيلا.. لست في مزاج لمتابعة الجدال.

ـ كيف أدعه وغداً عيد ميلادي!

ـ ادعي بضع أصدقاء لتناول الشاي إذا رغبت ولكنني غير مضطر لإقامة حفلة صاخبة.

ضربت الارض بقدمها.

ـ أي نوع من الأوصياء أنت؟ سأبلغ الخامسة والعشرين وهذا يعني أنني سأرث نصيبي من التركة وبذلك تتخلص من مسؤوليتي. ظننتك راغباً في إخبار العالم أجمع بهذا.

أطلق نفساً ساخطاً، ومر يديه في شعره:

ـ أنت تحتاجين إلى العقل الراجح، ألا ترين كم من العبء ستضعينه على كاهل شيلي؟

ـ وماذا يهمك على أي حال؟ وكأنها مميزة بالنسبة لك.

إنها تتقاضى أجراً على عملها كما أنك لم تعد تحبها.. ألم توضح ذلك أمام الجميع؟

رد باختصار: «يكفي أنني كنت أهتم بها يوماً».

شاهدت شيلي الغضب القاتم على وجهه، وارتجفت.. لقد آن لها الإعلان عن وجودها ولكنها عجزت عن ذلك.

قالت ستيلا: «لن تكون حفلة واحدة مشكلة بالنسبة لها. انها قادرة على الطهي والتنظيف، فهي مدبرة منزل عظيمة».

- هذا كله واجهة ستيلا.. ألا ترين كم تكافح؟ لقد أذت نفسها، ألم تريها تعرج؟

عبست ستيلا:

- أمتأكد أنت؟ كنت أنا وهي ونيل نلعب بالثلج بعد ظهر اليوم، ولم ألاحظ شيئاً.

- وهذا أمر آخر.. ماذا ستفعلين بالصبي أثناء الحفلة؟ لقد وعدت بالعناية به.

- اسمه نيل.. قالت شيلي إنها ستتركه معها في المطبخ.. ثم تضعه في الفراش حين يحين الوقت.

قال بدهشة لقلة تقديرها:

- وتتركينها تفعل ذلك! تريدين أن تضعي على كاهلها عبء الحفلة، وعبء طفل صغير؟ يا لك من مجحفة!

ارتفع صوتها بغضب حاد:

- ولِمَ لا؟ إنه غير متعب. إنه صبي صغير حسن الأخلاق، كنت ستعرف ذلك لو تحدثت إليه مرة.

نظر إليها بغضب مفاجىء ظهر فيه الشرّ:

- لا أريد الكلام عن ابن تيرانس.

- إنه ابن جولي أيضاً لا تنسى هذا.. كان لها مكانة خاصة في نفسك.

ضربت يداه حضنه: «ستيلا».

- لا تفعل هذا فرانك.. مهما كانت جولي قد جرحتك عندما فضلت تيرانس عليك فهذا لا يعني أن تنتقم من ابنها. ستحبه إنه يشبهها كثيراً..

- أنت لا تعرفين متى تتوقفين عن الحديث؟

- على المرء ألا يترك الأمور دفينة في نفسه حتى تفسد.. لو تباحثتما الموضوع أنت وتيرانس لصفا الجو ولخرجت الكراهية من نفسك.

- لا أريد التحدث عن جولي أو تيرانس أو ابنهما.. ألا يكفي أنك أجبرتني على شملهما بضيافتي؟.

رفعت رأسها: «لا أستطيع إبعاد نيل عنك إلى الأبد.. يحس بالفضول بشأنك.. أتعلم أنه كان يظنك نوعاً من «الغيلان»؟ ولكنه الآن يدرك أنك مجرد رجل وحيد كأبيه».

مرر يديه على وجهه، وحدق إلى ألسنة النار المتأججة، ثم أنزلهما إلى ركبتيه.. بعد لحظة، رفع رأسه، وضحك ضحكة قصيرة.

أحنت شيلي رأسها مغمضة عينيها بشدة.. إن رؤيته على هذه الحالة تؤلمها فليتها لم تسترق السمع.

عندما التقيا لأول مرة أخبرها أنه خطب امرأة ولكن الأمر لم يكن ناجحاً لأن الفتاة تزوجت شخصاً آخر. والآن عرفت

أن هذه الفتاة هي جولي، زوجة تيرانس. وهذا يفسر سبب التوتر القائم بينهما.. ولكن كيف يمكنها الوقوف هنا مسترقة السمع إلى حديث خاص؟ هذا أمر سوقي..

ارتدت إلى الوراء بخجل حتى شعرت بخشب الجدار البارد على ظهرها... لن تسمح له أن يعرف بوجودها الآن وليتها تجد مكاناً تختبىء فيه حتى يغادرا الغرفة..

استغلت ستيلا الضعف الذي بدا على فرانك وهاجمته:

- هل ستوافق على إقامة الحفلة؟ أرجوك! شيلي لا تعارض وجينفر ستنظم كل شيء.

تنهد بخشونة، وبصوت مهزوم: «افعلي ما تريدين ولكن توقفي فقط عن الإلحاح».

- شكراً لك فرانك!

لفت ذراعيها حول عنقه وقبلت خده البارد.

- لم تكن وصياً سيئاً على أي حال. تصبح على خير، ابن عمي العزيز.

ثم هرعت إلى الخارج قبل أن يغيّر رأيه.

بقيت شيلي في مكانها لا تسمع سوى ضربات قلبها العنيفة، كان رأسها محنياً إلى الأسفل. ولكن عندما رفعته أحست بالجمود.

كان فرانك يميل إلى الأمام ويداه تمسكان جانبي الكرسي بقوة وعيناه مثبتتان في عينيها، عبر مرآة فوق المدفأة.

سأل بصوت بارد كالثلج: «منذ متى أنت هنا؟».

دفعت نفسها عن الجدار، بيدين مبللتين:

- منذ وقت طويل.

أجبرت نفسها على التقدم ووقفت أمامه لتواجه عينيه القاسيتين بدون تردد.

- كان علي أن أشعرك بوجودي ولكنني لم أعرف كيف..

رفع رأسه والكراهية في كل خط من خطوط وجهه المتجهم:

- ظننتك أرفع مقاماً من استراق السمع.

تقوست كتفاها: «لم أتعمد ذلك بل حدث الأمر صدفة».

قال ساخراً: «والصدفة هي التي دفعت بستيلا إلى إدخالي إلى هنا.. يا إلهي»!

ضرب يديه على ذراعي مقعده:

- أنا عاجز كدمية مربوطة بالخيوط، تحت رحمة من يختار أن يدفع الكرسي.

- يمكنك إيجاد حل إن أردت.

تشنج فجأة، وقال والسخرية تقطر من صوته:

- ماذا تقترحين؟ أحمل فراشي وأسير؟

- لا.. فرانك... لا أظنك تستطيع هذا.. الناس لديهم الإيمان أما أنت فلا.

- إلام تشيرين؟

- رفضت التفكير في العلاج.

صاح بغضب وأنفاسه متحشرجة في حلقه:

- كان يجب أن أعرف! حسن جداً شيلي، القي على الخطاب الذي جئت من أجله، ثم اغربي من وجهي

- ولماذا أهدر أنفاسي على شخص غير مستعد للإصغاء.. ممَ تخاف؟

لم يرد عليها بل ظلت عيناه المعذبتان مستقرتين على النار خلفها. فسألت محدداً:

- ألا تستحق المحاولة؟

رد مكرهاً:

- أتظنين أنني لم أحاول؟ ألديك فكرة عما أحس وأنا أجر نفسي من الكرسي المتحرك، أملاً في الوقوف الذي لم يحدث قط بل في كل محاولة كنت أقع على وجهي؟ كم من المرات كافحت لأعود إلى الكرسي قبل أن يأتي آدم ويجدني على الأرض.

سرت رعشة خفيفة في أوصالها بسبب الصورة التي رسمها. ليس من العدل أن يتلوى هذا الجسد الطويل القوي بعجز تحت قدمي خادمه. ولكنها قالت بصوت متردد مرتعش:

- لا تتوقع الوقوف بهذه السرعة.. عليك الخضوع للتمارين المناسبة أولاً.

قاطعها بفظاظة: «وماذا تعرفين عن هذا الأمر وأنت لم تفقدي قط القدرة على استخدام ساقيك، ولم تضطري قط إلى الجلوس في كرسي متحرك. أو إلى النظر إلى الاعلى لرؤية الناس؟ لا تلقي عليّ المواعظ عن الإيمان والشجاعة شيلي.. لا أريد سماع هذا».

أثر غضبه المرير فيها بشكل رهيب. وسمّرتها نظرة

العذاب والانهزام في مكانها. اهتز صوتها بالكلمات التي خرجت لا إرادياً.

- أوه.. بل أعرف.. فرانك.. أتظن أنك الوحيد الذي عانى ويعاني؟ ألم تتساءل قط لماذا أرتدي السروال أو الجينز أو التنورة الطويلة طوال الوقت؟ لقد أمضيت نصف حياتي في كرسي نقّال!

رفع رأسه بشموخ، ينظر إليها وهو لا يصدق قولها ولكنها تركته يرى بأم عينه.

رفعت تنورتها الطويلة المخملية ببطء إلى منتصف وركها الأيمن، وانتظرت الصدمة التي قد تصيبه بالغثيان.

هناك في منتصف وركها رزحت شبكة من الخطوط المشابهة لخيوط العنكبوت. وفجوات شاحبة، بدا الجرح بشعاً، ولا شك أنه كان مؤلماً يوماً.

سمعت أنفاسه الحادة، قبل أن يبعد عينيه ويركزهما على النار.. فقالت ببرود وهي تسدل أطراف تنورتها قبل أن ترتد عنه، تمد يدها إلى النار:

- لا تنظر إليّ هكذا.. فأنا لا أحتاج إلى شفقتك أيضاً.

أطلق أنفاساً خشنة.

- لم أكن أعرف.. لم تخبريني يوماً.. ماذا تريدين أن أقول؟

- قل إنك ستبدأ العلاج، فما دمت أنا استطعت المقاومة حتى مشيت فأنت قادر أيضاً.

بدا صوته متردداً، مقطوع الأنفاس: «كيف وقع لك

ذلك».

تقدمت إلى المقعد لتغرق فيه:

ـ كان مرضاً في العظام. بدأ بحادثة تراكتور عندما كنت في السادسة. يومذاك خسرت عمتي جينفر زوجها، وكدت أخسر أنا ساقي. ولما بلغت العاشرة، أرادوا بترها ولكنني لم أسمح لهم بذلك بل اخترت سنوات من العمليات الجراحية.

بعد صمت طويل سمعت إطارات كرسيه تتحرك فوق الأرض نحو طاولة عليها غلاية كهربائية، ثم عاد بعد قليل وفي حضنه صينية عليها فنجانان من القهوة، قدم لها أحدهما. وقال متجهماً:

ـ بماذا سنحتفل؟ بعجزنا؟ بعجز الشخص الذي نجا والآخر الذي لم ينجُ؟

رفعت رأسها إلى الخلف وشدت فكها، كأنه مد يده ليصفعها. التمعت شرارات خضراء مريرة في عينيها.. بعدما خبا الأمل ليحل مكانه الغضب.

ـ أقل ما يمكنك فعله هو المحاولة!

ـ ولماذا أحاول ما دمت راحلة بعد أسابيع؟

ـ لكنك ستتمرن من أجلك أنت لا من أجلي.

اقترب منها. ونظر إليها نظرة كادت تحرقها ولم يلبث أن أشاح برأسه المتعجرف مجدداً بعيداً ثم لمّا نظر إليها مجدداً كانت عيناه مخدرتين:

ـ هل ستساعدينني؟

هزتها ردة فعل عنيفة وجعلت جسمها كله يرتجف. كانت

تعرف أن ما يطلبه كلفه الكثير.. كان إهانة لكبريائه ولوقاره ولاستقلاليته القوية. ولم تستطع السيطرة على العطف المتصاعد في نفسها، ولم تستطع منع صوتها من الارتعاش حين ردت عليه:

ـ أستطيع القيام بأشياء قليلة لك فرانك أما أنت فعليك أن تقوم بالعمل كله وهذا لن يكون سهلاً.

مد يده إليها. فارتفع أمل مفاجيء في أعماقها خاصة بعدما سحق يدها بدفء بين يديه تاركاً لذبذبة صامتة السريان بينهما.

في تلك اللحظة سقطت كل الحواجز واستطاعت من جديد سماع هدير المحيط وقرع المطر وسمعت من جديد صوته يهتز وهو يطلب منها الزواج به.. كانا متقاربين روحياً كحالهما الآن. توهج وجهها، وامتلأ قلبها بالحب الذي لم تستطع احتواءه.

قال بصوت أجش:

ـ لا أتوقع أن يكون الأمر سهلاً.. ولكنني.. أحتاجك شيلي.

نظرت إليه طويلاً والألم يعتصر فؤادها. سيعملان معاً عن قرب، وهذا سيصعب عليها الأمور، فمتى عاد يسير من جديد توجب عليها الرحيل.. لا أستطيع هذا! صاحت الفكرة الأنانية في رأسها.. ولكنها تعرف أن عليها تقديم يد المساعدة.. كيف يمكنها أن تنكر عليه حقاً كهذا؟

جلس أمامها شاحب الوجه متألماً ولم يكن بينهما سوى

الألم الصامت والحب غير الملفوظ والشوق المقروء بوضوح.

كانت أحاسيسها كلها تصيح شوقاً إليه.. ولكنها تعرف مكانها.. وقالت باختناق:

- أجل.. سأكون هنا فرانك.. وسأبذل ما بوسعي لمساعدتك.

* * *

٨ ـ صداقة لا حباً

قسمت شيلي وقتها في اليوم التالي بين مساعدة الخدم على تحضير المنزل لحفلة عيد ميلاد ستيلا وبين تحضير غرفة لعلاج فرانك الفيزيائي..

استقر توهج دافىء حول قلب شيلي كلما فكرت باقتناعه أخيراً بالقيام ببعض التمارين المساعدة على الشفاء. لن يكون الأمر هيناً عليه، ولكن ربما تستطيع أن تعطيه دعماً معنوياً عدا المساعدة في علاجه الفيزيائي.. استبقت افكارها مجرى الأحداث، وتخيلته واقفاً ماشياً وراكضاً فامتلأ قلبها فخراً ثم تصورت نوع العرفان بالجميل الذي سيبديه نحوها، ربما سيكونان من جديد في أحضان بعضهما بعضاً.

هزت نفسها موبخة: أنت رومانسية جداً.. لماذا ترين الأمور دائماً على النحو الذي تتمنينه عوضاً عن رؤيتها على حقيقتها؟ آن لك التخلي عن الأحلام الرومانسية.

لمست الكؤوس الكريستالية الأنيقة بعدما ملأتها بالشراب، استعداداً للحفلة.. هي أوّلاً بعيدة عن طبقته.. ها هو الثراء موجود أمامها على الصينية ولن تسمح لنفسها بنسيان

ذلك.

كانت قدماها ثابتتين على الأرض عندما دخلت إلى غرفة الاستقبال تشق طريقها بين ضيوف ستيلا.. كان فرانك جالساً في كرسيه المتحرك، يحيي أصدقاءه وجيرانه، بفتنة وسحر شهدتهما منه كثيراً في الماضي ولكنها لم تظن أنها ستراهما من جديد.

كان فرانك أنيقاً بسرواله الأسود وبقميصه الأبيض التي زينته ربطة عنق قاتمة تمتد على صدره القوي العريض، تحت سترة مخملية سوداء.. رأته جالساً هناك، يتقبل التمنيات الطيبة المقدمة إليه.

سمعته يقول وهو يبتسم ابتسامة طفولية لامرأة سمينة:

ـ أجل.. أصبحت ستيلا طليقة، وقالت إنني لم أكن وصياً سيئاً.. ولكنني أظنها سعيدة بالتحرر أخيراً من كل القيود التي يفرضها الأوصياء.

ضربت ستيلا قدمها في الارض.

ـ فرانك! إنك تصورني وكأنني لم أكن أفعل سوى المشاجرة. أنت تعرف أنني كنت مثال الأخلاق منذ أقمت معك هنا.. ستأخذ السيدة غاسكيون فكرة سيئة إن أصريت على هذا.

ضاقت عيناه، ثم وكأنه تذكر ابن السيدة غاسكيون، دايفز وهو شاب أنيق، أرسل لستيلا باقة ورود ضخمة.. فهز رأسه مبتسماً.

ـ أجل.. كنت مثال الفتاة، لقد شرّفت هذا المنزل

بطريقة لن تشرفه بها أية امرأة أخرى.

كان يكلم ستيلا، وعيناه تبحثان عن شيلي التي ما أن وجدتاها حتى استقرتا عليها.. ضحكت السيدة غاسكيون في وجه ستيلا، وكأنها توجه إليها اطراء غير ملفوظ!

ـ يا له من كلام جميل!

ابتسمت ستيلا ببرود:

ـ أشكر لك إطراءك فرانك.

ولكنها لم تدرك أنه كان في الواقع يوجه الاطراء لشيلي. ارتبكت شيلي وارتدت بسرعة حتى كادت توقع الكؤوس ولكنها قاومت للسيطرة على حرج حار كان يسري فيها.. وفكرت بغصة في حلقها! طالما تمنيت أن أكون سيدة هذا المنزل لكنني لست سيدته ولن أكون أبداً.

وفيما كانت تراقب ستيلا سراً عرفت أنها محقة.. فقد كانت الفتاة متلألئة، تنتزع اعجاب ضيوفها الصريح بسحر لا جهد فيه، تطير من مجموعة إلى أخرى بابتسامة مشرقة، ووقار أنيق.. لو قورنت بها لبدت المقارنة عقيمة.. والتوى ثغر شيلي.. ستيلا ولدت وترعرعت في هذه البيئة وهنا يكمن الفرق.

انبعثت الموسيقى الهادئة من جهاز الستيريو القابع في أحد أطراف الغرفة التي عجت بالناس الأنيقين. لم يكن في الحفلة مزارعون من الجوار فقط، بل الكثير من رجال الأعمال الأثرياء القادمين من بيتسبرغ وفلادلفيا، رجال ساعدوا فرانك حتى قرر تجديد هذا المنزل. وهناك نساء من الجمعية

التاريخية، وقد أعطيته مساعدة لا حصر لها في انتقاء القماش والأثاث.

كانت تعرف رغم كل ما يطرأ على بالها من أفكار أنها لا تنتمي إلى هذا المكان.. وهذا ما جعلها صامتة وأشد خجلاً.

ـ أين الفتاة التي توزع الشراب؟

اخترقها صوت فرانك العميق فتصلب ظهرها، واتجهت إليه تاركة الغرفة مبقية وجهها خالياً من أي تعبير، مادة إليه الصينية المليئة بالكؤوس، وعيناها إلى الأسفل.

ولكن، لم يحدث شيء. لم يأخذ كأساً كما توقعت منه.. وحين رفعت رأسها، أسر اهتمامها نظرته الباردة.. وكان هناك شيء آخر أيضاً.. شيء لم تستطع تحديده.. بحثت في وجهه عما يفكر فيه وفي هذا الوقت تلاشى كل ما حولها وعادت لا تعي سوى خفقان قلبها.

ـ شيلي..

فكرت: لقد ارتكبت هفوة ما! وارتدت على عقبيها متجهة إلى المطبخ.. لكن ماذا فعلت؟.. مادت بها الغرفة قبل أن تُمسك ذراعها يد قوية دافئة.

سألها تيرانس وهو يتناول الصينية منها ويعطيها إلى آدم الواقف قريباً منهما:

ـ هل أنت بخير؟

استجمعت شتات نفسها، ثم قالت: «بالطبع ولكن المكان حار قليلاً».

ـ اخرجي إلى الردهة اذن.

ـ يحتاجون إليّ في المطبخ.

مررت يدها على عينيها، تنظر بسرعة إلى ما حولها لتتأكد أنها لا تسبب مشكلة.. فهذا ما لا يغتفر. عندما ألقت نظرة على فرانك تشنجت مرة أخرى، واحمرّ وجهها بألوان الخزي.. كان يراقبها، ولكن أساريره في هذه المرة تحولت من البرود إلى الغضب المشتعل.

لحق تيرانس بنظرتها، ثم أمسك بيدها يشدها نحو الباب، متعمداً تجاهل نظرة فرانك القاتلة نحوه..

ـ المكان غير حار في الخارج.

لحقت به متعثرة، لكنها لم تستطع إبعاد عينيها عن وجه فرانك.

أقفل تيرانس الباب وراءه ووقف عاقداً ذراعيه على صدره:

ـ والآن.. ماذا حدث؟

بدا لها في بذلته السوداء الأنيقة بعيداً عنها كفرانك.

ـ لا شيء.

ـ لا تقولي لي هذا.. هل قال لك فرانك شيئاً؟ هل فعل ما أحرجك؟

ـ لا.. تيرانس.. أبداً. أنا.. أحسست أنه سيغمى عليّ.. هذا كل شيء. المكان حار في الداخل.. وأنا.. أرتدي ملابس.. تبدو..

صمتت تنظر إلى ملابسها بعجز، تحس أنها غير مناسبة. فأردف بصوت منخفض: «تبدو في غاية الروعة».

ظلت مطاطئة الرأس، كان شعرها قد تسلل من التسريحة الناعمة في قمة رأسها، واسترسل على كتفيها..

أردفت بحزن: «أنا لا أنتمي إلى هذا المكان».

- لن يقول فرانك هذا! لا أدري ما حدث بينكما ليلة أمس.. ولكنه سيبدأ بالعلاج. وهذا أهم ما في الأمر في الوقت الحاضر.. فلا تسمحي لمشاعرك بالوقوف حائلاً.

- كيف تعرف أنني أحس بأنني أدنى درجة؟

- لست أعمى شيلي.. أنت امرأة بمليون امرأة. صحيح أنك لم تولدي لمثل هذا النوع من الحياة.. لكن مطلق رجل.. سواء أكان غنياً أم فقيراً سيفخر أن تكوني زوجته!

أمسك يديها الصغيرتين الباردتين بين يديه، وقرب وجهه من وجهها ناظراً إلى عمق عينيها:

- أعرف أنك تحبينه.. دعي ذلك الحب يتغلب على كبريائك وكبريائه وإلا وقعت الخسارة الكبرى.

قاطعه صوت فرانك وكأنه ريح باردة:

- إن أردتما القيام بشيء كهذا.. فهلا سمحتما بإيجاد مكان أقل علنية؟

انفصلت شيلي عن تيرانس وهي تشعر بالذنب ثم نظرت إلى حيث يجلس فرانك البارد الوجه القاسي الملامح. كانت يداه مشدودتين على ذراعي مقعده. وخطوط جسده المتوتر تصرخ بكراهيته لرؤيتها هناك مع الرجل الذي كان يوماً صديقه..

قالت: أنا وفرانك...

- لا تزعجي نفسك بالتفسير شيلي.. أفهمك جيداً.. أذكر أنني طلبت منك البحث عن رجل سليم. رجل قادر..

امتقع وجهها بلون أحمر قان: «فرانك».

قال تيرانس بخشونة: «أنت لست عاجزاً فحسب بل أعمى أيضاً.. أتظنها قادرة على رؤيتي وأنت موجود؟».

كاد يهب فرانك عن كرسيه.

- سبق أن فعلت ذلك مع جولي.. فلماذا أبرئك من تكرار الفعلة نفسها مع شيلي؟

نظر تيرانس إليه ساخطاً قبل أن يجبر نفسه على الاسترخاء. وقال بهدوء:

- لم تكن جولي تحبك فرانك.. وهنا يكمن الفرق. إن شيلي تحبك مع أنك لا تستحق حبها.

رفع فرانك رأسه بتكبر، وأدار كرسيه مبتعداً عنهما.. إنه لا يريد أن يسمع الحقيقة.. وقال:

- لو سمحتما لي...

أحاطت به العجرفة وهو يشق طريقه بألم إلى جناحه في الجهة الأخرى من المنزل، ولم تستطع شيلي سوى النظر بعجز إلى تيرانس.

* * *

كانت عجرفة فرانك ويا للغرابة هي التي حثته في الأسبوع الأول على القيام بالتمارين وقد رأته أكثر من مرة يغرز أسنانه في شفتيه المرتجفتين بدل أن يترك للألم سبيلاً للخروج، وكان يوماً يدفع نفسه إلى أقصى الحدود وما كانت تستطيع

إلا الوقوف لمساعدته في الاستمرار بحركاته.

كان العرق يبلل وجهه، وكانت عروق عنقه المشدودة ترتجف كلما أجبر عضلات ساقيه المسترخية على التجاوب لإرادته. في أحد الأيام استلقى على ظهره فوق فراش على أرض الغرفة الصغيرة التي كانت تستخدم يوماً مخزناً وكان يرتدي ثوب بحر أسود. أشاحت بوجهها عن عضلات ساقيه الضامرة المهزولة..

قال آدم بهدوء، بعدما نظرت إليه شيلي:

- يكفي اليوم سيدي. سأحضر لك ثيابك.

مسح وجهه بمنشفته، يسألها ساخراً:

- هل هذا كثير عليك شيلي؟

ألقى رأسه على الفراش في لحظة ضعف، وخرجت أنفاسه في زفرات قصيرة، ولكن عينيه لم تفارقا الجسد النحيل الراكع أمامه.

تعسر عليها إبقاء الأمور في مسارها الصحيح فقد كانت كلما رأت قده الممشوق تشعر بالوهن وتشدها رغبة إلى ضمه حتى تخفف عنه توتره وحتى تنعم بملمس جسده.

رفعت ذقنها مجبرة نفسها على التفكير في أمور أقل خطورة من التي تدور في رأسها:

- أنت ترهق نفسك بقسوة. إن أردت النتائج فتباطأ قليلاً لتستطع تنفيذ التمارين مرحلة مرحلة وإلا سوف تفسد كل ما حققته من تقدم حتى الآن.

- أكنت قادرة على فعل هذا؟

لامست شفتيها ابتسامة خفيفة:

- لا.. لكن.. كنت أصغر سناً.. ولم يكن لنفاد صبري حد.

- ولماذا يكون لنفاد صبري حد؟

- لِمَا العجلة فرانك؟

- أنسيت؟.. جينفر ستنتزع جبيرتها غداً.

اتسعت عيناها «هل مرت ستة أسابيع؟».

- ألم تعدي الأيام؟

بدت مرتبكة فأردف: «أما زلت تنوين الرحيل غداً؟».

حاولت الوقوف.. ولكنه مد يده ليمسك معصمها ويبقيها إلى جانبه.. فقالت وغصة غريبة في حلقها:

- يبدو أنني نسيت الوقت.

أيقول لها إنه لم يعد بحاجة لمساعدتها؟

- ابقي معي شيلي.

قالت مرتجفة: «لكنك أنهيت تمارين اليوم».

تعمدت إساءة فهمه، لأنها أرادت الابتعاد عنه لتفكر في ما ستفعل:

- لقد أنهيت تمارينك وآدم ذهب ليحضر لك ملابسك.

اسودت عيناه: «تعرفين أني لم أشر إلى ذلك بل أشرت إلى أنك سترحلين بعدما تنزع جنيفر الجبيرة».

أحنت كتفيها: «أنت قلت ذلك».

- وأنا أسألك البقاء.

- على أي أساس؟ إن عادت عمتي إلى عملها، فلن يبقى

لي مكان هنا.

- ألا يمكنك البقاء فقط؟

- أتطلب مني العيش معك؟

قالت تلك الكلمة بهدف المزاح لتخفيف التوتر، ولتمهل نفسها وقتاً لتفكر في مشاعرها المشوّشة بين الشفقة والحب والكبرياء، والمعرفة بأنه لم يعد يحتاجها الآن حقاً لأنه يتقدم في العلاج. ولكنه فهم ما تفكر فيه، فاتسعت عيناها.

قال بخشونة: «لِمَ لا تكونين صديقة أتت تقيم في منزلي؟».

أخذت شرارات باردة تمر في ظهرها صعوداً وهبوطاً.

- صديقة؟ أتريد مني أن أكون صديقتك؟

أهذا ما سيؤول إليه حبها؟

اشتبكت عيونهما في صمت طويل، ثم أحست بشيء يموت داخلها.. لماذا الاستغراب؟ فما حبها إلا إحراج له.. إنه لورد انكليزي ثري، وهي فتاة عاملة عادية.. كانت عيناه الرماديتان القاتمتان عميقتين، رائعتين ومفعمتين بالحيوية.. ولكنها لم ترَ فيهما سوى فراغ غريب صدمها.

- أيمكن لمثل هذا أن يكون ممكناً بيننا.. شيلي؟

بدأت كتفاها تنحنيان بانهزام.. ولكنها لملمت شتات نفسها ورسمت ابتسامة على وجهها الأبيض:

- استدر إذن يا صديقي.. سأدلك لك عضلاتك المتوترة حتى يعود آدم.

لم تلاحظ في خضم حالتها النفسية كيف استدار بسهولة،

بدون أن يظهر عليه الألم الذي كان بيناً قبل أسبوع. لقد انصب فكرها على شعورها بالخسارة والهجران. سكبت كمية صغيرة من الزيت على يديها ثم باشرت بتمسيده، ما إن لامسته حتى ارتجفت يداها فاضطرت إلى إجبار نفسها على عجن لحمه بدل مداعبته.

تمتم: «شكراً شيلي، لا أدري ما كنت سأفعل لولاك».

تجمعت الدموع في مآقيها ولم يلاحظها وهي ترد:

- لا بأس.. فما فائدة الأصدقاء؟

* * *

عندما عادت جينفر إلى عملها، ظل لشيلي المركز نفسه أمام الجميع، وكانت تشعر كلما مرت الأيام بأنها طائر يغرد خارج سربه إذ صاروا لا يسمحون لها بالعمل المنزلي مهما كان. وإن لم تمنعها إحدى الخادمات، منعتها عمتها.. واستخدم فرانك المزيد من الخادمات اللواتي شعرت أمام كفاءتهن بالضياع.

وقفت أمام نافذة المكتبة في إحدى الأمسيات، تراقب شمس نيسان وهي تغوص في الأفق الغائم. شاهدت نيل يلعب في المرج مع كلبه وكلب فرانك الأسود الذي ما يزال ممنوعاً من دخول المنزل. ثم شاهدت آدم وهال يستريحان قرب الاسطبل، فراقبتهما متنهدة وشعرت بأنها غريبة، تراقب عائلة سعيدة، هي ليست جزءاً منها.

- ما الخطب شيلي؟ أراك حزينة.

كان سؤال تيرانس هادئاً. رفعت بصرها إلى جسده

الضخم، ثم أشاحت بوجهها عنه بسرعة:
- أنا.. أنا كنت أفكر.. فقط.
- أفكار محزنة؟
هزت رأسها فطار شعرها الأشقر الذهبي المسترسل على فستانها الأزرق الحريري.
- أعرفك أفضل من هذا.
ابتعدت عنه، وتمكنت من الابتسام بخجل:
- تبدو أنيقاً الليلة. أهذه بذلة جديدة؟ تبدو وكأنك ترتدي ملابسك من أجل احتفال، لا من أجل عشاء.
قال بصوت عذب: «أتغيرين الموضوع؟».
عضت شفتها «الديك كتفان عريضتان وإن واظبت على الخوض في هذا الموضوع فقد تراني على كتفك باكية».
- ألا ترغبين في ذلك؟
شبكت يديها: «الشفقة على النفس سمة الضعفاء».
أضاءت مصباحاً صغيراً، وتوجهت إلى الموقد حيث النار متأججة:
- لست معتاداً على الاستعداد باكراً للعشاء.. أكل شيء على ما يرام؟
زادت ابتسامة بطيئة عمق خطوط وجهه:
- ألم تلاحظي؟ كنت أبيع غلة عمتك في الأسابيع القليلة الماضية ولقد استسلمت أخيراً وباعت أرضها.. لقد تمَّ الاتفاق هذا الصباح، ومنذ الخامسة من هذا اليوم، أصبحت بلا عمل.

نظرت إليه: «لم أعلم..».
- ليس الأمر مدهشاً إلى هذه الدرجة.
- كانت عمتي تتكلم عن المسألة بطريقة ملتوية كالعادة ولكنني ظننت الأمر بعيد الحدوث.. ماذا ستفعل الآن؟
- سأعود إلى كرونويل.. لدي قطعة أرض على الساحل.. ربما أستطيع أن أجد فيها ما أبحث عنه.
اقترب منها، ووضع يديه بخفة على كتفيها:
- حجزت لي ولنيل تذكرة غداً.
- غداً؟ لكن.. لم يقل أحد شيئاً عن هذا. تيرانس لا يمكنك الرحيل!
لاحظت أنها بدأت تتكلم وكأنها ستيلا، فابتلعت بصعوبة:
- هل ستصحب ستيلا معك؟
- لديها أمور كثيرة تفعلها وأماكن كثيرة تزورها قبل أن تقرر الاستقرار. كرونويل في الوقت الحاضر، ليس المكان المناسب لها.. وربما لن يكون أبداً.
- آه تيرانس.. إن رحلت أنت فماذا أفعل أنا؟ مع من سأتحدث؟
عبس: «الديك فراتك».
أمسكت بيديه تنظر إليه، باحثة: «لا، انه يريدني صديقة، وهذا ما لن أكونه يوماً».
- يجب أن تدفعيه ليرى أنك أكثر بكثير من صديقة.
- لا أستطيع.

- عليك ذلك شيلي.. ألم تسمعي بأن الحب أعمى؟ وفرانك أعمى أكثر من غيره.

- تيرانس لماذا هو؟ لماذا لم أقع في حبك أنتَ؟

- لا خيار لنا في الحب..

انسلت من بين شفتيها أنة وأخيراً استسلمت إلى صدره تبلل بدموعها قميصه. فجأة تسللت ذراعاه إليها دافناً رأسها في كتفه.

- فرانك يحبك شيلي.. وليس له خيار في ذلك أيضاً.

- لا.. كان يريدني يوماً.. قال إنه يحتاج إليّ لمساعدته في تمارينه حتى يستطيع السير مجدداً.. أما الحب؟

وضع إصبعه تحت ذقنها، ليرفع لها وجهها المغرورق بالدموع.

- إنه شخص معقد، متكبر ومجروح، ولكنه يحاول حماية نفسه من الجراح مرة أخرى. أحبيه شيلي.. واظهري له أن حبك هو كل ما يحتاج إليه من الحماية.

دست أصابعها في كميّ سترته وشدتها تضغط القماش:

- لن أنجح.. إن كنت مسافراً في الغد فسأعود إلى موطني.. لقد أقمت طويلاً في هذا المكان الذي لا أنتمي إليه.. فرانك لا يحتاجني..

- لا يمكنك هجرانه.

أحست بألم ينغرز كالسكين في قلبها.

- لا مكان لي في حياته. لن أبقى لأكون مجرد إحراج له، منتظرة أن يطلب مني الرحيل. ترى هل سأنساه؟

لمعت عيناه الزرقاوان بشدة وهو يمسك بها بين دائرة ذراعيه القويتين، يتفرس في وجهها المتورد، ثم ضمها إليه يسحق جسدها النحيل دافناً وجهه في شعرها الذهبي. ظل وقتاً طويلاً صامتاً يضمها وعندما تكلم أخيراً قال بصوت متأجج بالمشاعر:

- أترغبين في السفر معي إلى كرونوبل؟ ستكون الحياة هناك بسيطة.. ولن يكون لي فيها منزل أوفره لك، ولكنني سأحاول إسعادك.

- تيرانس..

حبس صوت تحطم شيء ما الكلمات في حنجرة شيلي التي انتفضت مذعورة ثم التفتت هي وتيرانس إلى مصدر الصوت فإذا فرانك واقفاً أمامهما غاضباً وعكازان خشبيان مرميان على الأرض أمامهما.

* * *

٩ ـ ستبقين لي

قال فرانك بوحشية، أظهرته بمظهر شيطاني:

ـ أهكذا أخذت جولي مني؟ بوعود بسيطة لا أستطيع أن أوفرها لها؟

قال تيرانس بهدوء: «أنت مخطىء فرانك، أنا لم آخذ جولي منك كما لا أستطيع أبداً أن آخذ شيلي منك».

صاح ساخراً بصوت ملؤه الشر:

ـ كاذب! سمعتك تطلب منها مرافقتك وهذا ما لن أسمح به! عندما ترحل صباحاً فلن تأخذ معك سوى ابنك.

أسقط تيرانس يديه إلى جنبيه، وتقدم عدة خطوات ينظر إلى عيني فرانك.

ـ لا تفعل هذا.. فلن أسمح لك باستخدام هذه اللهجة معي مقعداً كنت أم غير مقعد.

ـ لكنني لم أعد مقعداً.. فأنا أقف على قدمي قائلاً لك ارحل أنت وابنك. أما شيلي فستبقى حتى أنتهي منها.

ـ وإن لم تشأ البقاء؟

ـ إنها لي تيرانس.. وستبقى.

نظر تيرانس إليها:

ـ أمامك الخيار شيلي.. فماذا تختارين؟ أتبقين معه، أم ترحلين معي؟

ضمت يديها بتشنج، ناقلة بصرها بينهما: إن فرانك يعرف نعم المعرفة أن لا مجال للاختيار.. فهو قوي نشيط، فخور، لا يلين في عجرفته، لكنها تحبه.

طلب منها قلبها البقاء لأن فرانك قد يكون بحاجة إليها، فهي تراه واقفاً على قدميه بدون ثبات، واقفاً وحده بدون مساعدة ولكن بقي أمامه أن يبدأ بالسير أما عقلها فطلب منها الرحيل لأن فرانك قطع شوطاً طويلاً في علاجه في وقت قصير.. ولن بمضي وقت طويل حتى يسير من جديد. وبعد ذلك ماذا سيحدث لها؟ قال إنه يريد منها البقاء حتى ينتهي منها.. هل سيقدر على احتمال اللحظة التي يطلب فيها منها الرحيل؟

قال فرانك وهو يتلوى ألماً.

ـ لا.. لا تقولي شيئاً.. اذهبي معه فقط.

مد تيرانس يده ليمنع شيلي من الهرب كالعمياء من الغرفة صائحاً بفرانك:

ـ أيها الأحمق! ألا ترى أنها لا تريد مرافقتي؟ لو انتظرت لحظة أخرى لسمعتها تقول لي إنها لن تتمكن من السفر إلى كرونويل. فهي تفقد أمامك أية كرامة.. ولهذا تسمح لك بأن تدوسها بقدميك. أنت لا تستحق امرأة مثل شيلي.

ـ وأنت تستحقها، على ما أظن؟

- أنا على الأقل لن أسيء معاملتها!

ارتجف صوته بغضب:

- أسيء معاملتها؟ في البيت عدد كبير من الخدم. ولقد فعلت ما بوسعي لأهوّن عليها الأمور وهي الآن غير مضطرة لرفع اصبعها.

قال تيرانس بصوت منخفض خطير:

- إنها ليست كجولي.. وهذه غلطتك الأولى. أنت تعاملها وكأنها جولي.. وشيلي لا تحب الكسل ألا تفهم هذا؟

نظر فرانك إليها، وكأنه يراها، يراها حقاً، لأول مرة..

كانت تقف إلى جانب تيرانس وعيناها متسعتان من فرط الألم، ويداها مشدودتان من شدة العذاب.

وأكمل تيرانس:

- غلطتك الثانية، أنك لم تقل لها كل يوم.. إنك تحبها، فهي تعتقد أنك لا تحبها. أتعرف هذا؟

فجأة، زال كل غضب عن وجه فرانك.. واصبحت عيناه متعبتين مرهقتين.

عندما نظر إليها ضخ الدم في عروقها، وتسارعت أنفاسها. عرفت أن الموقف مستحيل.. ومع ذلك كان هناك شوق يمسك بقلبها، أرادت أن تتقدم إليه، أن ترمي بنفسها بين ذراعيه، وأن تتظاهر بانه رجل عادي وليس لورداً نبيلاً.

انفجر تيرانس: «لماذا لا تعترف لها؟ هل أنت خائف من الاعتراف؟ هل جرحتك جولي إلى هذا الحد؟».

سخر فرانك منه: «يعرف الجميع مدى الحب الذي كانت

تكنه لي منذ الطفولة ومع ذلك تركتني».

أطبقت أسنان تيرانس وتلوى وجهه ألماً:

- لم تحبك قط! وإن كنت صادقاً مع نفسك عرفت أنك لم تحبها أيضاً وحبك لشيلي يبرهن لك ذلك.

انتفض جسده وكأن تياراً كهربائياً اخترق كيانه.

- ابتلع كبرياءك فرانك! تنازل.. قل لها كم تعني لك.. وإلا، بحق الله، سآخذها منك!

- لن تجرؤ.

رد بخشونة، وعيناه تشتعلان فجأة ناراً:

- لن أجرؤ؟ إنها تحبك فرانك.. ولكنني قادر على دفعها إلى حبي.

دوى صوته الاجش:

- إنها لي! وستبقى لي! لن أسمح لها بالذهاب.. كيف أستطيع؟

- لا تقل لي هذا بل قله لها!

أدار فرانك رأسه يواجه شيلي، ولكنه فجأة تجمد في مكانه. كانت ستيلا واقفة نصف مخبأة وراء كرسي.

- يبدو أن هذه الغرفة مخصصة لاستراق السمع.

قالت ستيلا معتذرة:

- آسفة، لقد نمت على الكرسي، ولقد أيقظني صوت العكازين، أنا سعيدة لأنك أفضل حالاً فرانك.

تقدمت إليه تطبع قبلة رقيقة على خده، قبل أن تلتقط العكازين، وتساعده على وضعهما تحت إبطيه، بعد ذلك

التفت إلى تيرانس.

ـ لم أكن أنوي استراق السمع. وحين وقفت لم يرني أحد منكم، ثم قلت أشياء أثارت فضولي.

اكفهر وجهه: «انسي الأمر ستيلا».

ـ لا أستطيع! حسبت أنني أعرف معنى الحب.. ولكن بعدما أصغيت إليكم عرفت أنني كنت مخطئة، فما مشاعري إلا مشاعر سطحية.

نظرت إلى شيلي تبتسم بحزن:

ـ أنت تعتقدين أنك لا تنتمين إلى هذا المكان، لكنك مخطئة شيلي.. أنت «سيدة» أكثر من معظم السيدات في بلادي.

ظهرت الدهشة على وجه تيرانس.. فهو لم يرَ هذا الوجه في ستيلا من قبل. تحرك بسرعة إلى حيث يقف فرانك متكئاً على عكازيه، ومدّ له يده، قائلاً بهدوء:

ـ وداعاً فرانك.. لن أتطفل على حسن وفادتك أكثر من هذا. أمامك فرصة مع شيلي، وأتمنى أن تستفيد منها إلى أقصى الحدود.

التفت إلى شيلي، وأمسك بكلتا يديها، وانحنى يلثم جبينها ثم قال: «كنت ستحبين كرونويل».

ثم التفت إلى ستيلا، ورمى ذراعه بأخوية على كتفيها:

ـ حان وقت الانسحاب لنتركهما وحدهما حتى يحلا مشاكلهما، ما رأيك في البحث عن نيل؟

دست ستيلا ذراعها حول خصره وتركا الغرفة بدون أن

ينظرا خلفهما.

سكن كل شيء فجأة ولم يعد في الغرفة غير هسيس الحطب في المدفأة.. أصدرت أنفاسها صوتاً لأنها كانت تحبسها ثم همست قائلة:

ـ لا شك في أنك أحببت جولي كثيراً.

ضحك ثم جرّ نفسه قرب النار حيث وقف متوازناً على عكازيه:

ـ كنت أؤمن أن الشمس لا تطلع أو تغيب إلا لأجلها.. وعندما تخلّت عني وتزوجت تيرانس كدت أقتلها.. ولم أدرك حتى الليلة أن هجرها لي لم يكن ضربة حقيقية لقلبي. كنت أعمى لأنني لم أدرك ذلك فجل ما فعلته هو جرح غروري، وكبريائي اللعينة.

رمى رأسه إلى الوراء ضاحكاً:

ـ لم أحبها قط ومع ذلك أمضيت الأيام وأنا أكره أفضل صديق بسبب ما حدث.

تلوى وجهه.. إنه اكتشاف مؤلم، ما من رجل يملك هذه الكبرياء قادر على القبول بالهزيمة بسهولة.

كرهت شيلي الوقوف هنا تشهد إذلاله، ومزّق قلبها رؤية الذل على وجهه..

ارتدت بصمت، وكادت تصل إلى الباب حينما أوقفها صوته الأجش:

ـ هل أنت راحلة مع تيرانس، على أي حال؟

توترت، لكنها التفتت إليه: «لا فرانك. ولكن آن لي

العودة إلى دياري».

- وحدك؟

- إن كنت تشير إلى العمة جينفر.. فأجل.. إنها سعيدة هنا.

- وماذا عنك؟ ألست سعيدة هنا؟

- لا فرانك.. أنا غير سعيدة.. فلست المرأة التي تنتمي إلى عالمك..

- لكنك تحبينني!

لم يهتز تماسك أعصابها:

- أجل.. أحبك.. وسأحبك دائماً، ولكن المشكلة أنك لا تحبني.

كاد يختنق والتوى فمه بألم لا يحتمل:

- ولماذا تظنين أنني لا أحبك؟ ماذا فعلت؟

- أولاً كذبت عليّ قائلاً إن ستيلا زوجتك.. ثم قلت إنني غير جديرة بمشاركتك أيامك العصيبة.

نظر إليها بذهول: «لا تعنين ما تقولين».

ارتجفت بشدة: «بل أعني كل كلمة قلتها».

أشار إلى عكازيه:

- إذا كنت أحببتني بما يكفي لتشاركيني مصابي، فلماذا لا تبقين بعدما أصبحت على قيد أنملة من السير من جديد، شاركيني حياتي ومنزلي الذي ستجدين فيه كل ما تحتاجين إليه.

وقفت في الغرفة الأنيقة الجميلة وسرت رعشة خفيفة في أوصالها، لقد قال لها منذ زمن بعيد إنها لا تنتمي إلى هذا

المنزل، فكيف يتوقع منها القبول بالأمر بكل بساطة؟ ما هي سوى صديقة، تحبه.. وهذا منزله، الذي لن يكون منزلها..

قالت بصوت عذب: أنت ثري.

- أيزعجك ثرائي؟

- لم تخبرني بأنك ثري يوم التقينا.

- وهل كان سيشكل فرقاً؟.

أطلقت تنهيدة هزيمة:

- لا.. أعتقد لا.. فأنا لم أختر أن أحبك.. لقد وقعت في حبك لا إرادياً وما كان شعوري ليتغير حتى لو كنت فقيراً مدقعاً.

- لكنك كنت ستندمين؟

- طبعاً لأنك لا تحبني.. قلت إننا «صديقان».

ترقرقت الدموع في مآقيها، واحترقت خجلاً وذلاً.

- إذن.. ابقي معي، وكوني أكثر من صديقة.

تصلب ظهرها كبرياء: «لا فرانك لن ينجح الأمر، فأنا راحلة، لقد مكثت عندك أكثر مما يلزم».

جرّ نفسه بارتباك ليقف أمامها: «هكذا؟».

كان العرق يتفصد من شفته العليا.. وقال بغضب:

- لكنك تحبينني.. أنت تحبينني!

وكأنما رغب في الإمساك بها ليهزها بقسوة تعيد إليها تعقلها..

- لا يعطيك حبي الحق في جرحي، لا.. الأصدقاء لا يرتكبون هذه الأخطاء بحق بعضهم بعضاً.. أنت اللورد

الثري، لكن لي كرامتي.. قلت لي مرة إنني لا أنتمي إلى عالمك ولم أصدق ما تقول، أما الآن فأراك على حق.. ولن أنسى هذا أبداً.

ثم ارتدت على عقبيها وهرعت إلى الخارج لا تلوي على شيء. لن تبقى واقفة أمامه ليشهد انهيارها وتحطم قلبها.

لكنه لم يرغب في إنهاء الأمر.. فلحق بها، لاعناً يجر نفسه نحو الباب بحركات مؤلمة غير متزنة.. ولكن العكازين انزلقا على الأرض المصقولة وانكب هو على وجهه صادماً رأسه بالرخام، قبل أن يستلقي في الردهة كومة بلا حراك.

أوقفت جريها المجنون، والتفتت إلى الخلف، تهرع إليه نحوه، صائحة: «فرانك، فرانك! هل أنت بخير؟».

كان وجهه شاحباً كالأموات ناضحاً عرقاً.

ـ لا.. لا تتركيني.. لا يمكنك..

وتلاشى صوته بعدما ضاع في غيبوبة.

* * *

١٠ ـ قولي نعم

راجعت شيلي مراراً في الأيام الثلاثة التالية لحظاتها الأخيرة مع فرانك. وفيما كانت جاثمة أمامه فاقدة الأمل تتمتم بكلمات التشجيع، أحست بأنه يسمعها مطمئن البال.

أما الآن، وهي واقفة قرب سرير المستشفى الضيق فتشك في صواب ما فعلت.. لم يكن يحق لها البقاء بل لم يكن من حقها أن تفعل.

كان جسده الطويل مدثراً وبدا وجهه الوسيم مستريحاً لا يغضنه الألم المعتاد..

تعرف أنه لن يشكرها على ما فعلت.. أمسكت الحاجز قربه بيدين مرتجفتين ونظرت إليه، متمنية أن يفتح عينيه وخائفة في الوقت نفسه من ذلك.. ماذا إن لم ينجح الأمر؟ هي ليست بامرأة مقامرة.. ولكنها في هذه المرة قامرت بحياة فرانك.

عندما كانت في غرفة الطوارىء أقنعت نفسها بأنها تقوم بالأمر الصواب وقد ظنها الاطباء والممرضات الذين اعتنوا به زوجته.. فأخذوا توقيعها على اجراء عملية جراحية فورية..

وقف آدم إلى جانبها، صامتاً يطمئنها.. وعندما أصبحا في صالون الانتظار المظلم، ضغط على يدها، وهز رأسه، ثم قال بلطف:

- أنا واثق أننا قمنا بالعمل الصحيح.. آنسة.. إنه عنيد لقد رفض الإصغاء إلى المنطق ولم يقبل بإجراء العملية التي قال الطبيب إنها قد تنجح. لم يفكر إلا في أن العملية قد تزيد من شلله، قال: «الشيطان الذي تعرفه أفضل من الذي لا تعرفه». ونحن إنما انتزعنا القرار من بين يديه.. هذا كل شيء.

ابتسمت له متوترة، وشكرته بصمت لأنه شاركها بهذه الخدعة.. فقد كان قادراً بسهولة على أن يقول للممرضة، انها ليست السيدة فرانكلين هايز. وعندئذ كان سيخرج القرار من بين يديها.

أجبرها وقع خفيف على توجيه اهتمامها إلى شيء آخر. إنه وقع المطر من جديد ولكن فيما كانت تراقب المطر المنهمر على الزجاج، التوى ثغرها على مضض بابتسامة حزينة.. ففي مثل هذا الجو الممطر طلب فرانك يدها، كان يبدو صغيراً، وطفولياً يومذاك، والمطر يتقطر من شعره إلى أنفه وشفتيه. ما زالت تشعر بطعم المطر المالح على شفتيها وهو يشدها بقوة إلى ذراعيه. يومذاك كان عناقه شغفاً كبيراً. ترى هل سيأتي عليها يوم تتمكن فيه من النظر إلى المطر بدون أن تتذكر ما حدث ذاك اليوم الممطر؟

أفلتت منها تنهيدة صغيرة، قبل أن تعيد نظرها إلى

فرانك.

رأته يرقد هادئاً ساكناً ينظر إليها بعينيه الرماديتين، ثم قال متسائلاً، وعيناه تلتهمانها: «لم ترحلي».

سألت بصوت مختنق: «كيف تشعر؟».

بدت عليه الدهشة ثم نظر إلى الغرفة البيضاء:

- كيف وصلت إلى هنا؟ لا أشعر بألم في ظهري.

- حملك آدم وتيرانس إلى المستشفى.

- تيرانس؟

- لم يستطع السفر بدون أن يتأكد من سلامتك. هو يعودك يومياً.

- منذ متى أنا هنا؟

عضت شفتها، ونظرت إلى وجهه متمعنة:

- ثلاثة أيام.

- وهل بقيت فاقد الوعي ثلاثة أيام؟

استرخى قليلاً، ينظر إلى السقف ليخفف عنه الارتباك.

سحبت نفساً عميقاً، ثم ردت:

- لقد مرت بك أمور كثيرة في هذه الفترة القصيرة.. أجريت لك عملية جراحية فرانك يعتقدها الطبيب ناجحة ولكنه لن يتأكد إلا بعد أن تستعيد وعيك. من الأفضل أن أخبر الممرضة أنك استيقظت.

رفع يده يمنعها:

- انتظري.. كيف أجروا لي عملية جراحية؟ لم أوقع على الموافقة.

كبحت غصة مفاجئة: «وقعت الأوراق نيابة عنك. أعلم أنني تصرفت بوقاحة ولكنك كنت غائباً عن الوعي وقال الأطباء إن عمودك الفقري يعاني من ضغط شديد فاضطررت إلى المخاطرة».

- أنت وقعت؟

- ادعيت أنني زوجتك.

أغمض عينيه، ثم فتحهما بسرعة مبتسماً لأول مرة.

- لن يعجب ذلك والدك الذي قال إنني لا أستطيع أن أطلب يدك ثانية حتى أقف على قدميّ من جديد.

انتفضت: «والدي؟».

- لقد أجريت عدة اتصالات هاتفية معه. وحدث آخر اتصال قبل أن أجدك وتيرانس في المكتبة. لذلك وقفت على ذينك العكازين، كان علي الوقوف مستقيماً. عرفت أن تيرانس مسافر ووجدني بحاجة إلى العمل بسرعة لئلا يأخذك معه.

تراخت ساقاها، وغرقت بوهن على الكرسي إلى جانب الفراش، فما تسمعه كثير عليها:

- ماذا قال لك أبي؟

- شرحت له أنني «صاحب السيادة» الذي تذكرينه أنت وعمتك في الرسائل.

انحنى رأسها إلى الامام، ولم تقل شيئاً.. فتابع:

- قلت له إنني طلبت منك البقاء لمساعدتي حتى أتمكن من طلب يدك متى عدت قادراً على السير من جديد.

ارتفعت عيناها إلى وجهه: «وماذا قال؟».

- لم يألُ جهداً في مهاجمتي.. قال لي بصراحة إنني شخص فاسد...

ابتسم لها: «أنت ترين الصورة بوضوح».

لم ترفع عينيها إليه.

- قلت له إنني أريد أن أقضي حياتي لأعوّض ما فات لك شيلي.. لكنه قال إنه مؤمن بأنني استغليت كرم أخلاقك وقال إن عليّ الوقوف على قدمي ليكون لي أكثر من المال واللقب قبل أن أجرؤ على طلب يدك مرة أخرى.

جلست جامدة ترتجف أوصالها، وراقبته يجلس، قال باستغراب: «لا ألم، هلاّ أنزلت الحاجز!؟».

قفزت واقفة: «لا تفعل سأستدعي الممرضة».

- لا.. يجب أن أحاول أولاً.. وأفضل ألا يكون في الغرفة مشاهدين.

- لا يجب ألا..

- بل يجب.. أرجوك!

ولم تستطع إلا الرضوخ، فأخفضت الحاجز المعدني، وراقبته ينزل ساقيه. جلس دقيقة يكافح موجات دوار.. ثم شد على فكيه، ووقف منتصباً على الأرض الباردة.. ثم صاح مسروراً: «لا ألم».

توقفت الدموع في مآقيها، ولم تستطع رفع نظرها عنه.. إنه يقف وحده رافع الرأس مستقيم الظهر.. وخطا خطوة عرجاء ثم أخرى فأخرى وأعقبها بأخرى قبل أن يضمها بقسوة بين ذراعيه:

قال بكل تواضع وهو يسحقها بين ذراعيه.

ـ شكراً لك.. ما كنت لأقبل بإجراء العملية وحدي.

دفنت وجهها في صدره وقلبها يخفق فوق قلبه، وذراعاها حول ظهره، وأرسلت دعاء صامتاً إلى ربها.

ثم دوى صوته فجأة:

ـ لقد انتظرت طويلاً حتى أطلب منك أمراً شيلي: هل تتزوجينني؟

ارتعش جسمها كله.. آه.. ما أشد رغبتها في ذلك! وتدفقت دموعها.. ستكون زوجته.. سيكون لها الحق في البقاء معه دائماً، وفي مشاركته حياته وحبه.. تراءت لها الصور، صور أطفالهما وهم يركضون ويضحكون ولكن هذا مستحيل.. انه من طبقة مختلفة وهي غير قادرة على أن تطلب منه النزول إلى مستواها، كما لن تستطيع الارتفاع إلى مستواه، إنه مولود في بيئته، وهي مولودة في بيئتها.

في لحظات الصمت لم تكن تسمع سوى وقع المطر على زجاج النافذة.. ثم خفف ضغط ذراعيه عنها، وتغير صوته ونظر إلى وجهها:

ـ شيلي؟

قالت ببساطة وحنجرتها تؤلمها بيأس مكبوت:

ـ أحبك.. أظن أن عليك العودة إلى الفراش حتى أستدعي الممرضة.

حفرت أصابعه في ذراعيها وأصبح صوته متحشرجاً:

ـ أعرف أنك تحبينني.. لكنك لم تقولي نعم.

ـ أرجوك.. فرانك..

هزها بغضب: «لماذا لا تريدين الزواج بي؟».

ـ تشعر الآن بالامتنان لي.. ولكن عندما يزول هذا الشعور سنعود إلى نقطة البداية.

ـ وما الخطأ في هذا؟ كان حباً من النظرة الأولى. أليس هذا ما نعرفه نعم المعرفة؟ أخيراً سيتحقق ما نريد.

حاولت الانسحاب من بين ذراعيه ولكنه لم يتركها:

ـ لا! يستحيل أن يتحقق ذلك.

ـ ماذا تقصدين؟

اختنقت: «أرجوك فرانك».

ـ ماذا تريدين مني أن أفعل؟ أخبريني.. سأفعل ما تريدين حتى أتزوجك.

شعرت بالعذاب يمسك بخناقها:

ـ لن تستطيع أن تحبني! مستحيل! أنت لورد.. وأنا فتاة عادية بسيطة..

نظر إليها مصعوقاً، شاحب الوجه من فرط الصدمة:

ـ يا إلهي شيلي.. أهذا هو السبب؟ ألهذا هربت مني في حفلة عيد ميلاد ستيلا؟ ألهذا تابعت الهرب مع أنني أعرف أنك تحبينني أنا؟ كنت طوال الوقت قلقاً لأنني غير قادر على الزواج بك.. ولكنني لم أظن أن هناك سبباً يمنعك أنت من الزواج بي.. يا إلهي شيلي! لن تتركي سبباً سخيفاً كهذا يحول بيننا.

جفت شفتاها، وامتلأ صوتها بالألم والشوق والدموع:

- تعرف أنني على حق. كما تعرف أنه لا يحق لي أن أحبك لو كنا في انكلترا..

أبعدها عنه بخشونة ويداه تشدان ذراعيها. كان وجهه متوتراً وهو ينظر إلى وجهها المصدوم.

- إن لقبي أحد أسباب سفري.. لم أكن أريده ومع الوقت أصبح لا يعني لي شيئاً، ولكنه أحياناً يقف في الطريق. بعض الناس لا يتركونك تنسين، يتوقعون منك العيش في مستوى محدد، والتصرف بطريقة محددة.. جئت إلى هنا لأبدأ حياة جديدة، لأكون حراً، لأكون رجلاً عادياً.

- ولكنك لست عادياً فرانك.. وليس عليك ذلك.. يلاحظ الناس هذه الميزة فيك كما يلاحظون منزلك وطريقة حياتك..

مر الألم على وجهه:

- لم أشأ العيش في هذا المكان وما جئت إلى هذا الجزء من البلاد إلا لأرى جولي، لأتصالح معها قبل أن تموت.. وفيما كنت هنا شاهدت خرائب منزل العزبة، فتذكرت بلادي.. ولكن كان فيه ما هو أكثر. لقد انجذبت إليه ولا أدري سبب انجذابي ذاك.. أحسست». أنني منجذب إليه بطريقة ما. ربما لن تفهمي. لكنني لم أنفك عن العودة إليه متصوراً ما سيبدو عليه لو اهتم شخص ما بأمره.

هز كتفيه بعجز، قبل أن تلاحظ عيناه نظراتها الدهشة.. امتد شيء ما بينهما.. إحساس لم يكن يحتاج إلى كلام.. ثم.. أحست به في رأسها يسري ثم لم يلبث أن سرى في

رأسه وفجأة تساقطت الأسرار.

ابتسمت رغماً عنها، وطاف شعاع فرح منه إليها، ليشعل هالة من الدفء حول قلبها.. ربما.. ربما.. مجرد ربما.. من الممكن.. على أي حال..

ومرت رعشات باردة في أوصالها، تبرد وتحترق في آن واحد.

قال ذلك بدون كلمات.. حبنا قد يجعل كل شيء ممكناً.

ارتجف مضطرباً وأصبحت عيناه بحيرتين عميقتين من العواطف.

- تزوجيني وعيشي معي في العزبة! أعرف أنك كنت تحلمين بها يوماً ودعيني أحقق كل أحلامك.

احتواها بين ذراعيه مرة أخرى بقوة أذهلتها، وقال:

- لا تخافي من ثرائي أو لقبي، أنت لي، وأنا لك حتى قبل أن نلتقي.. حاولت كبريائي الوقوف بيننا.. لكنك حلت دونها.. ولن أترك كبرياءك تقف بيننا الآن.

توقفت غصة في حلقها: «لم أشعر قط بكبريائي تحول دوننا».

تأوه: «شبلي ألا ترين؟ أنا مجرد رجل يريد أن يحبك ويهتم بك، أن يعيد إليك بعض البهجة التي منحته إياها، لقد أخذت منك الكثير، وأعطيتني الكثير بلا مقابل.. وهناك ما هو أكثر مما أعطيتني إياه وأنا أريده كله! فليتغلب حبك على كبريائك.. وأقسم لك أنك لن تندمي».

www.liilas.com

تلاشى فجأة يأسها وخوفها وقلقها كله فتنفست الصعداء وفاض قلبها بالمشاعر، معاً سيتمكنان من مواجهة كل شيء.. معاً سينتصران على الكبرياء.

قال بصوت مرتعش: «قولي إنك تقبلين الزواج بي».

لم تتردد: «أجل حبيبي أجل! أنا...».

لكنه لم يترك لها فرصة لتعبر عن مدى حبها له، بل سحقها بين ذراعيه وشدها بعنف إليه، فغرقت في موجة من الحب حارة.

- فرانك أنا آسفة...

وضع إصبعه على فمها يسكتها، وتراجع بضعف ليجلس على السرير تاركاً ذراعه حولها:

- أنا أرتجف ولكنني لا أعلم ما إن كانت الرجفة بسبب وقوفي على قدمي أم بسبب وجودك بين ذراعي، لقد نسيت كم يكون عناقك قوياً فعالاً.

في هذه اللحظة دخلت ممرضة رشيقة سرعان ما توقفت فجأة تنظر بذهول:

- سيد هايز!

قال بابتسامة:

- كنا على وشك أن نستدعيك، لنعلمك أنني استيقظت من غيبوبتي.

قالت وهي تنظر نظرة ذات معنى إلى شيلي ووجهها المتورد:

- جئت أقيس ضغط دمك. لكن، من الأفضل الانتظار

قليلاً. يبدو مما أرى أن ضغط الجو كله مرتفع.. سأعلم الطبيب أنك استيقظت، ثم أعود إليك بعد دقائق.

توجهت إلى الباب ثم عادت فنظرت من فوق كتفها، وقالت بهدوء:

- احذري ألا ينفعل زوجك كثيراً فيفسد بذلك ما أنجزنا. من الأفضل أن تعيديه إلى الفراش.

سبب احمرار وجه شيلي التسلية لفرانك فقال ضاحكاً بخبث:

- كانت زوجتي تحاول إعادتي إلى الفراش منذ ربع ساعة.

ابتسمت الممرضة: «أووه! أوه!».

زادت ابتسامتها عمقاً حين فهمت أن كلامه يعني أمرين مختلفين، ونظرت جيداً إلى فرانك ثم خرجت. ووبخته شيلي: «فرانك».

- ساعديني حتى أعود إلى السرير. أتسمحين يا زوجتي؟

.. وتراقصت عيناها، فقال بصوت منخفض:

- أتحداك أن تقولي شيئاً.

- لو كنت فعلاً زوجتك لعرفت أين سأكون!

تسلل تحت الأغطية ضاحكاً:

- ألا تظنين أننا قد نذهل الممرضة بهذا؟

أخذت تمسح أطراف قدميها في الأرض مطأطئة الرأس بحيث أخفى شعرها الذهبي وجهها المشتعل.

- حين تعود إلى منزلك. حبيبي...

www.liilas.com

فراشة المحبة

- إلى منزلنا شيلي.. وليس إلى منزل عزبة اللورد الانكليزي واللايدي.. بل إلى المنزل الذي سنعيد إحياءه من جديد بالأولاد.

أمسك كتفيها يعيدها إلى صدره:

- سيكون المنزل لنا وحدنا مدة أسبوع.

تمتمت ووجهها مدفون في عنقه:

- أسبوع فقط؟ بطريقة ما.. أعتقد أن ذلك سيصدم عمتي.. لذلك من الأفضل أن تقوم بهذا بطريقة لائقة.. ولكن المدة أسبوعين!

تمتم بشوق جائع، ويداه تجوبان ظهرها:

- لا تصعبي عليّ الأمر أكثر مما هو عليه. إن التفكير بأنني مضطر للانتظار حتى نعود إلى البيت ونتزوج..

هز رأسه وكأنه يحاول طرد الفكرة منه.

فتنهدت:

- أحبك كثيراً.. ولقد انتظرنا طويلاً وليس كثير علينا الانتظار أياماً معدودات.

- وهل علينا انتظار قدوم والديك وأشقائك لحضور الزفاف؟ هذا قد يستغرق أسابيع.

ضحكت بخفة: «يا لك من رجل عديم الصبر».

- كنت عديم الصبر متعجرفاً، أحمق، أعمى.. فهل ستسامحينني؟

- قرأت في مكان ما أن الزواج السعيد، هو اتحاد بين شخصين يعرفان معنى التسامح..

- سأتذكر هذا.. ربما مع الوقت، سأتعلم ما علي تعلمه. هل أنت قادرة على العيش معي خمسين سنة لتلقيني الدروس؟ فأنا مضطر للبدء من جديد.

احمر وجهها بشدة، وذابت على صدره: «خمسون سنة فقط؟».

* * *

www.liilas.com